أحمد زياد محبك

نظرات متبادلة

قصص قصيرة

٢٠١٨

العنوان: نظرات متبادلة
المؤلف:
النوع: قصص قصيرة
الطبعة الأولى: ٢٠١٨
اتحاد الكتاب العرب
دمشق

مفتتح

ألمٌ لا ينتهي

يقلقني أني في كل ما كتبت
لم أكن وفيا لك
لم أكتب عنك
ولا عني
ولكنك كنت معي
وكنت معك
ما ابتعدت أنت عني
وما ابتعدت عنك
وكنت دائما أرجع إليك
وها أنذا الآن معك
وأظن أني لن أَفِيَك حقك
مهما كتبت
ولكن سأظل أكتب
*
أنت محيط الدائرة ومركزها
أنت وحدك الكل

بعطاياك أحيا
أنت المبتدأ
وأنت المنتهى
وطالما ابتعدت أنا عنك
ولكني كنت أحس دائما
أني عنك لا أبتعد
دائما كل أشواقي
في القرب وفي البعد
إليك وحدك
*
يؤلمني أني لم أكتب
لا عنك ولا عني
*
هل أستطيع يوما أن أكتب؟

أُمْسِكُ يد ابني جلال، أمسكها بلطف، ولكنه يقول لي:

ـ بابا، أوجعت أصابعي.

وأدرك أنني حقيقة كنت أشد على أصابعه من حيث لا أدري.

وأمضي به في الشارع الصاعد، وأنا أكاد أنزلق، الماء يسح على عرض الشارع، وأنا أسير في وسطه بين السيارات، صاعداً على طوله، لا أعرف لماذا أسرع، كأني أريد الوصول فوراً إلى نهايته، لأبلغ قمته، حيث تتناثر هناك في الأعلى البسطات وعربات الخُضَر والفواكه وبعض المحلات الشعبية البسيطة.

جلال يقول لي:

ـ بابا، هذا هو الكرز، هناك.

ويشير إلى محل ذي واجهة زجاجية على يميني، تصطف أمامه مدرجات خشبية تنهض فوقها أهرامات صغيرة من التفاح الأحمر والأصفر والبرتقال الذهبي والكرز الأحمر القاني بحباته الكبيرة.

والأجير أمام المحل يمسك بالخرطوم يرش أرض الشارع، ويتصاعد الصهد.

أشد جلال من يده، وأقول له:

ـ هناك، فوق بائع، أعرفه، والشراء من أول السوق غلط.

ويرد:

ـــ هذا الكرز شاهدناه في التلفزيون، المذيع قال مفيد، والأحمر الغامق، مفيد أكثر.

***

قبل ساعة كانت إحدى القنوات الفضائية تتحدث عن فوائد الكرز، وولدي جلال جن جنونه لدى رؤيته حبات الكرز في التلفزيون.

ويسألني:

ـ بابا، نزل الكرز إلى السوق؟

وتعلق الأم:

ـــ أنا كنت في الباص، ورأيته في السوق العالي، في المحلات الكبيرة، على طرفي السوق، والحبة كأنها بحجم الجوزة.

أبلع ريقي، حنجرتي أحس بها مثل زجاج يتكســـر، ألتفت إليها، أغمز بعيني.

وجلال يلح علي للذهاب إلى الســوق فوراً، بل يلح على ذهابه معي، فقد عودتـه على أخذه معي إلى الســـوق، وأنـا أحـاول إقناعه بالانتظار حتى تميل الشمس إلى المغيب، أقول له:

ـــ ياولدي الآن الساعة الرابعة، ولم يؤذن بعد للعصر، شمس آخر تموز حارقة، أخاف عليك من الحر.

وبعد ســاعة، أمام إلحاح جلال أجدني أجره من يده إلى الســوق العالي، والشمس ترمي نارها على الرؤوس، وكأنها قد ازدادت اشتعالاً.

***

ألمح أمام الكرز الذي أشار إليه ابني رقم: ٤٠٠.

مرة ثانية يقول لي جلال:

ـ بابا، أوجعت أصابعي.

وأترك يده، أتركه يمشـــي إلى جواري حراً، وأنأ أغذ الخطا، أحس بأني أنحني إلى الأمام وأنا أصعد في الشارع، والماء يسح على عرضه.

أقول لولدي:

ـــ انتبه، لا تنزلق، وتقع، أصحاب المحلات هنا كما ترى، دائماً يرشون الشارع أمامهم بالماء.

ويسأل جلال:

ـ لكن، المياه في حيِّنا قليلة، وتأتي في الأسبوع مرة أو مرتين.

ـ هنا عندهم آبار خاصة.

جلال يمسك بيدي، ويقول:

ـ بابا، تعال، لنمشي على الرصيف، في المدرسة قال المعلم يجب السير على الرصيف الأيمن.

*

أسير في منتصف الشارع، أو على طرف منه، على الرغم من مرور السيارت إلى جواري، أحاول ألا نسير على الرصيف أمام المحلات الفخمة، حيث تصطف الخضر والفواكه على مدرجات خشبية في أشكال هندسية جميلة، لا معة متألقة، فأنا أخشى أن أشتهيها، أو يشتهيها ولدي جلال، حقيقة كما قال مرة أحد أصدقائي: "تشتهي أخذ صورة تذكارية أمام كل محل"، ثم أضاف: "والله، لا أصدق وجود من يشتري تلك الفواكه بمثل هذه الأسعار، أظنها للفرجة لا للبيع، كأننا في متحف أو معرض، وممنوع اللمس"، لكنني أرى الناس يشترون، كأننا في عيد أو كأن كل واحد منهم عنده مناسبة خاصة، أو عنده مثل ولدي جلال، آه، لو كنت مثلهم، لاشتريت له كل ما يشتهيه، بل لاشتريت لنفسي أنا أيضاً كل ما أشتهيه.

***

أحس بالطريق إلى نهاية الشارع الصاعد طويلة، لا أعرف متى سأبلغها، الزحام شديد، سيارات صاعدة وأخرى هابطة، على الطرفين، وأخرى تقف أمام المحلات دقائق وما تلبث قليلاً حتى ينطلق بها أصحابها، وقد اشتروا حاجاتهم، لا أعرف لماذا يأتون إلى هذا السوق لشراء كيلو تفاح أو كيلو خيار، أنا لو كان عندي سيارة ومعي عملة، كنت ذهبت إلى سوق الهال واشتريت صندوق تفاح، كل شيء هناك بالجملة أرخص.

عند أعلى السوق، تتناثر عربات وبسطات. ويشير ولدي إلى عربة عليها كرز أسود قانٍ حباته كبيرة، ويصيح:

ـ بابا، هذا هو الكرز.

الكرز مكوم على العربة في شكل هضبة، تعلوها وريقة رسم فوقها بحبر أسود: ٣٠٠

أشد ولدي من يده، أضغط عليها، أقول:

ـ هناك في الطرف الآخر بائع.

ونسير بين عربات كثيرة متزاحمة.

كرز كثير، وعربات كثيرة، ليس هناك ماهو دون ٣٠٠.

***

قبل خروجي، فتحت حافظة نقودي، ناولت زوجتي ألف ليرة، وقلت لها:

ـــــ أبقيها معك، ما بقي معي غير ألف وخمسمئة ليرة، وأمامنا أسبوع كامل حتى أقبض راتبي، وأخاف من تأخر المعتمد في تقبيض الراتب يومين أو ثلاثة.

وعند الباب تقول لي:

ـ لا تنس شراء كيلوين من الباذنجان لنقليه غداً بالزيت.

وأرد:

ـــــ وهل بقي عندنا زيت؟ سنمضي بقية الأسبوع مع العدس بالحامض والخبز اليابس.

***

وألمح من بعيد عربة، فوقها كومة صغيرة من الكرز المائل إلى الأصفر، وأسرع إليها، حبات الكرز ناعمة، لونها باهت، ليس بالأحمر ولا الوردي، كأنها صفراء، الكمية قليلة، ليست تلة ولا هضبة.

أسرع إليها، وأنا أمر بين أكوام من القمامة، أقول لولدي:

ـ انتبه، لا تضع قدمك، هنا، انتبه، حتى لا تنزلق.

وألاحظ جلال وهو يسد أنفه من الروائح المنبعثة من بين العربات.

وأسأل البائع عن السعر فيجيب:

ـ للدروايش، نصف الكيلو بمئة ليرة.

جلال يشدني من يدي، وهو يغمغم:

ـــــ لأ، بابا، هذا الكرز ما طيب، وما هو الذي حكى عنه المذيع في التلفزيون.

جلال في السادسة من عمره، العام الماضي اشتريت له من هذا النوع، أو أفضل، كان سعر الكيلو مئة ليرة، لكن ما أحبه، أكل بضع حبات وتركه.

أتجول بين العربات، الشمس فوق رأسي تصب نارها، أضع يدي على رأس ولدي جلال، أرد عنه الشمس.

جلال يشدني من يدي، مرة أخرى، وهو يغمغم:

ـ بابا، تعال نرجع إلى أول محل في بداية السوق.

أعلق:

ـ كرمى لعيونك، سأشتري لك حبات الكرز الكبيرة، أكبر حبات كرز في السوق.

*

وأهبط به في الشارع، أسير على الرصيف مضطراً، لعلي أعثر بمحل، الكرز فيه بسعر مقبول. ليس هناك ما هو دون ٤٠٠ ليرة. أقف أمام محل، أقول للبائع:

ـ ضع لي من هذا الكرز ربع كيلو.

البائع يضحك، يقهقه، يفتح شدقه العريض، يحشرج بصوت أجش، وهو يسأل ساخراً:

ـ ربع كيلو؟ ربع كيلو يا رجل؟ طولك وعرضك تشتري ربع كيلو؟ تريد شراء ربع كيلو، هكذا ببساطة أحمل لك الكيس وأملؤه وأضعه في الميزان لأبيعك ربع كيلو بمئة ليرة؟.

الدم يقفز إلى وجهي، أحس بأذنيَّ الاثنتين قد أصبحتا حمراوين، شيء يخزني في الصدر عند الطرف الأيسر، قلبي يدق، أعلق:

ـ عائلتي صغيرة، وما عندي غير هذا الولد.

ويضحك البائع، صوته يجلجل:

ـ عمرك رايح إلى الخمسين وما عندك غيره؟

وأرد بصوت خافت، وأنا أتلعثم:

ـ ظروف الموظف دائماً قاسية، وتزوجت في وقت متأخر.

البائع يمضي في تعليقه:

ـ وما عندك غيره وتشتري له ربع كيلو؟ عمِّي، الله يرضى عليك، اطلع لفوق، هناك عربات في آخر السوق في الأعالي ـــ ما شاء الله ـــ عندها كيلو الكرز بمئة ليرة، أنا لا أبيع ربع كيلو.

ثم يلتفت إلى الداخل وينادي بصوته الأجش العريض:

ـــــ تعال ياولد، هات الخرطوم ورش الماء أمام المحل، تعال اغسل الرصيف.

أتركه، وأهبط عن الرصيف، جلال يسأل:

ـ بابا، هذا البائع عصبي، لا يريد البيع، يريد عرض البضاعة، للفرجة، ولماذا يتكلم على عمرك، أنا بدأت أكره السوق.

أقطع الشـــارع عبر الســـيارات إلى الرصـــيف الآخر، لا أعرف لماذا قطعته، الأسعار هناك لن تكون أقل، الماء ينداح على الشارع، ويغمر طرفيه، ولدي يعلق:

ـ والله هذا إسراف، لماذا كل هذه المياه.

أرد:

ـ هذا لترطيب الجو، ومن أجل الخضر والفواكه، حتى لا تجف.

أتجه فوراً إلى البائع أقول له:

ـ ضع لي نصف كيلو.

البائع، يغمغم:

ـــ حسبي الله ونعم الوكيل، زبائن البسطات والعربات بدأت تنزل من فوق، أخي، تكرم، والله لن تخجل، سأبيعك ولو مئة غرام، ما كرمى لك، ولكن كرمى لهذا الولد، أنا أعرف، أنا شـــاهدتك قبل قليل، أنت طلعت إلى فوق ونزلت، أنا أعرف الولد اشتهى الكرز، وما أعجبه الكرز فوق.

ويمد يده، يناول ولدي عوداً يحمل كرزتين، وهو يقول:

ـ خذ عمي، خذ.

جلال يقول:

ـ شكراً ياعمي، لا أستطيع أكلها، تحتاج إلى غسل.

البائع يضحك، ويلتفت إلى غلام في داخل المحل، وهو يقول:

ـــ يا ولد، هات الخرطوم ورش الأرض، قبل ما تنشف، واغسل هذه الكرزات.

جلال يعلق:

ـ شكراً يا عمي، سأغسلها في البيت.

ـــ كما تريد، احملها معك، للزينة، تفرج عليها، وفي البيت اغسلها كما تشاء وكلها.

ونهبط، أنا أحمل الكيس وفيه نصف الكيلو، الكيس من النايلون الشفاف، وولدي يحمل العود، تتدلى منه كرزتان.

صوت من جانبي ينادي:

ـ أبو جلال، أبو جلال.

وألتفت، وإذا غادة زوجة شـقيق زوجتي في السـيارة، في مقعدها وراء المقود تشـــير إليَّ بيدها، أقف، أحييها، وأجير المحل يرش زجاج ســـيارتها الأمامي بالماء، والمساحات تتحرك برتابة فوق الزجاج، وتسأل:

ــ ماذا اشتريت، أسعار هذا السوق غالية، لا تناسب راتبك، حرام، اطلع إلى فوق.

أرى عينيها مصـــوّبتين إلى الكيس البلاســـتيكي الأبيض الشـــفاف وفيه نصف كيلو كرز.

أهز رأسي، الدم ينفر من وجهي، تحمرّ أذناي، أحس بهما تشتعلان، مرة أخرى أحس بوخزة في الجانب الأيسر من صدري، أغمغم:

ـ أعرف.

وتلتفت إلى جلال، تسأل:

ـ كيفك حبيبي جلال؟

ثم تنادي:

ـ جون، بسرعة ياجون، ما عدت أتحمل الجو الحار.

وتتقدم منها صبية سمراء قاتمة السمرة، تحمل بضعة أكياس، تسألها:

ـ كم دفعت؟

ترد جون:

ـ ألفين وخمسمئة.

تعلق:

ـ هات الأكياس ضعيها معك على المقعد.

وتدخل جون في السيارة.

غادة تضيف:

ـ أبو جلال، تفضل لأوصلك إلى البيت.

أرد:

ـ شكرا، البيت قريب.

وترجع بسيارتها إلى الوراء قليلاً، تمدّ يدها من النافذة، تضع في يد أجير المحل ورقة نقدية أظنها من فئة الخمسين ليرة، وهي تقول لي:

ـ سلم لي على أم جلال، وقل لها أخوك يسلم عليك، وقل لها: إذا احتاجت إلى شيء تتصل ...

وتمضي.

ويسألني جلال:

ـ بابا، بنتها عيونها متورمة، ولا تشبه أمها ولا خالي.

أضحك وأعلق:

ـ حبيبي، هذه خدامة من الفيلبين، ما هي ابنتها.

ويرد:

ـ لكن لما زارنا خالي في العيد ما كانت معه.

وأرد:

ـــــ الخدامة لا تصـــحبهم في زياراتهم، الخدامة تعمل في البيت، وقد تصحبهم إلى السوق لشراء الحاجات، وإذا صحبتهم، لا تنزل معهم، تظل في السيارة.

وأغمغم:

ـ وليتهم ما زارونا، لا في العيد، ولا في غير العيد.

جلال يسألني:

ـ ولماذا تناديها جون؟ هل هذا اسمها؟ وما هذا الاسم؟

أضغط على أصابعه بيدي، هذه المرة متعمداً، أقول له:

ـ لا تسألني، هكذا ينادي الأغنياء خدامهم، ما هو اسمها، هو مجرد نداء، في كل لحظة يمكن مناداتها بأي شيء: جان جون جين.

يلتفت نحوي ويسأل:

ـ بابا، يجوز هذا؟

***

عند آخر الســوق، الذي أصــبح الآن هابطاً، ونحن ننزل فيه، كان علينا قطع الشــارع إلى الطرف الآخر، الماء ينداح من أعلى الشــارع كالنهر، وعند نهايته يملأ جانب الرصيف، ويمشي في المسيل.

أنزل بقدمي عن الرصيف لأقطع الشارع، أمد رجلي إلى أمام قليلاً حتى لا يغطس حذائي في الماء الجاري عند طرف الرصـــيف، أجد كيس النايلون الأبيض الشــفاف قد طار من يدي وتناثرت الكرزات على الشــارع الذي كنت سأعبره والسيارت أخذت تدوسه، وأنا ملقى على قفاي فوق الرصيف، وجلال يصيح مذعوراً:

ـ بابا، بابا.

أرى ثلاثة شبان يسرعون نحوي، قبل وصولهم أكون قد نهضت، يتقدم مني أحدهم، يمد يده إليَّ، وهو يقول:

ـ سلامتك، سلامتك.

جلال ما يزال يصيح مذعوراً:

ـ بابا، بابا.

أقول له:

ـ حبيبي، الأمر بسيط، زلت قدمي بسبب الماء.

وأنظر إلى حيث وضـــعت قدمي، لا قشـــرة موز، ولا قشـــرة برتقال، غريب، كيف زلت قدمي؟ لا أعرف، اختل توازني من حيث لا أشـــعر، الحمد لله على كل حال، الحمد لله، أنا، ولا جلال.

أحد الشبان الثلاثة يقول لي:

ــ عمي، سيارتي هناك على الرصيف المقابل، هل آخذك إلى المستشفى لتصور ظهرك، أو رأسك، أنا مستعد، لا سمح الله، لكل الاحتمالات، والدي هو صاحب المستشفى، وأنا طبيب.

أنظر إلى بنطالي المبلل وأبتسم، وإن كنت في داخلي أضـحك مدهوشـاً، وأقول له:

ـ شكراً، الحمد لله، لا أحس بأي ألم، ولا ضرورة للمستشفى.

الشاب يضيف:

ـ سأوصلك إلى البيت.

ـ شكراً، شكراً، بارك الله فيك.

جلال ينظر إلى الكرز والسيارات المسرعة تدوسه بعجلاتها.

أمسك يده بلطف، وبنطالي مبلل، وأنا أقول:

ـــ لا تزعل، فداك، تعال سنرجع، بقي معي أربعمئة، سأشتري لك كيلو كرز من أول بائع في السوق، ليتنا ماصعدنا إلى فوق ولا نزلنا.

جلال يمسك يدي، يجذبني بشدة وهو يصيح والدموع تملأ عينيه:

ـــ لأ، بابا، أنت ما بقي معك غير ثلاثمئة ليرة، نسيت؟ أنت اشتريت نصف كيلو كرز، أعطيت للبائع خمسمئة، ورد إليك ثلاثمئة، أنا انتبهت إليه.

أمسح رأسه بيدي، وأقول:

ـ سأشتري نصف كيلو بمئتين، ويبقى معنا مئة، نرجع بسيارة الأجرة.

جلال يجذبني من يدي، يشدني والدموع تملأ عينيه:

ـــ لأ، بابا، لأ، سنرجع إلى البيت، سنرجع ماشيين، مثلما جئنا، كرهت السوق، كرهت الكرز، ما عدت أريد الكرز.

خارج حديقة الألعاب

في الفسحة أمام حديقة الألعاب باعة ومتسولون وأولاد يتراكضون، ونسمات الأصيل في أواخر أيلول تنعش أرواحهم. ولدي هادي يقول لي:

ـ بابا، أريد غزل البنات.

هدى عيناها معلقتان بتلك الخيوط الحريرية الملوَّنة التي تدور في الصحن أمام صانع غزل البنات، هديل تمسك يد أمها وتشير إلى البائع، وهي تقول:

ـ ماما، أريد هذا.

وأمام بائع غزل البنات نقف، الصحن يدور وتتحوَّل ذرَّات السكر إلى غزلة من الخيوط الحريرية الناعمة.

زوجتي تناول هديل أولاً غزلة حمراء، تتأملها، لا تعرف كيف تقضمها، هدى تأخذ غزلة زهرية اللون، هادي يأخذ غزلة صفراء كالليمون.

أقول للبائع:

ـ اصنع لي اثنتين.

زوجتي تنظر إلى متسائلة، أقول:

ـ لي، ولك.

ترجع إلى الوراء، تضحك، تعلِّق:

ـ لا، لا، لا أريد، نحن كبار، أنا أخجل، لا أريد.

وأردّ:

ـ لماذا الخجل؟ أنا أحبها، تذوب في الفم مثل الهواء.

وأناولها غزلتها، وآخذ في قضم غزلتي، وأعلق:

ـــــ أوه، ما أهونها وما أسهلها؟ ليت الحياة تكون كذلك، حلوة وناعمة وسهلة.. يا إلهي.

تمتد أمامي يد، أفاجأ، رجل يطلب صدقة، يده الأخرى مقطوعة عند الرسغ، وقد رفع كم القميص عنها ليظهر موضع القطع، ألتفت إلى زوجتي، أقول لها:

ـ أعطيه أنت.

وأدير وجهي، وأمشي، أحس بالضيق، لماذا يكشف عامداً عن موضع القطع؟ هدى تسألني:

ـ بابا، كيف قطعت يده؟

أقول لها هارباً من السؤال:

ـ هل أشتري لكم كيس فوشار؟

هادي يرد:

ـ نعم، نعم، بابا.

هدى تعود إلى السؤال:

ـ بابا ما قلت لي: كيف قطعت يده؟

أجيبها:

ـ بالمستشفى، أو بحادث سيارة.

وتسأل:

ـ وكيف تقطع بالمستشفى؟ بالمنشار أم بالسيف؟

أقول لها، ونحن نقترب من باب الحديقة:

ـ ابقي هنا إلى جانب أمك، سأشتري لكم التذاكر.

أمام الكوة أقف أشتري أربع تذاكر، هديل معفاة، هي ابنة أربع سنين، سيدة تقترب مني ومعها ولد، تقول لزوجتي:

ـــ الله يرزقكم، قولي لزوجك ليشتري تذكرة لابني، دخليه مع أولادك، اعتبريه ابنكم، والله ما معي ثمن تذكرة، والولد اشتهى.

المرأة في ثياب عادية، لا يظهر عليها آثار الفقر والتسول، والولد كذلك، ألتفت إليها، أقول لها:

ـــــ يا أختي، في الحديقة ألعاب وسيارات كهربائية، قد يقع، دخوله مسؤولية.

تضيف:

ـ الله يرزقك، أنت دخِّله، واتركه وحده، ولا تسأل عنه.

أناولها غزلة الحرير، أقول لها:

ـ خذي، أعطيه هذه الغزلة ليأكلها.

وتناولها زوجتي غزلتها، تقول لها:

ـ خذي، هذه لك.

المرأة تقول لزوجتي:

ـ الله يرزقك، أعطي الولد ثمن صندويشة فلافل، والله من الصبح ما دخل إلى جوفه شيء.

أمد يدي إلى جيبي أناولها ورقة نقدية، المرأة تلح على زوجتي:

ـ وأنت، الله يرزقك، ويحفظ أولادك.

زوجتي تفتح حقيبتها، وتناولها.

ومع دخولنا، أجد الولد قد انســـل بيننا، وأصـــبح مع أولادنا، الموظف المسؤول عن استلام التذاكر في مدخل الحديقة، يسأل:

ـ الولد معكم؟

أنتبه إليه، أقول له:

ـ لأ.

الموظف يبعده عن المدخل، ونصبح في داخل الحديقة.

الفسحة في الحديقة واسعة، والألعاب تمتد أمامنا، وثمة باعة في الساحة، كرات ومظلات للشمس وقبعات وهدايا وباعة فوشار وغزل البنات ومشروبات ومثلجات.

الشـــمس تميل نحو الأفق الغربي ونســـمات أيلول ندية والجو يشـــعرك بالانفتاح والانطلاق.

هدى وهادي ينطلقان أمامنا، تتوسطهما هديل، كل منهما يمسك بها بيد.

هدى في الثانية عشـــرة، وهادي في العاشـــرة، وهديل في الرابعة، ما أحلاهم، زهور متفتحة، رؤيتهم في الحديقة أو في الشـارع أو في زيارة قريب أو صديق تمنح النفس شعوراً مختلفاً عن رؤيتهم في البيت.

أحس أن هنالك في هذا العالم من هو جزء مني.

مرة اشتريت شجيرة ورد صغيرة في وعاء فخاري جميل، بقيتُ أشهراً أرعاها، وأنا أنتظر تفتُّحَ الوردِ فيها، ولمّا ظهر فيها أول برعم، جن جنوني من الفرح، طار عقلي، أحسست أني صنعت شيئاً في هذا الكون.

أقول لزوجتي:

ـ هدى كبرت بسرعة.

زوجتي تعلق:

ـ البنت تنمو أسرع من الصبي.

وأسألهم:

ـ أشتري لكم صندويشات؟

هدى ترد:

ـ لأ، الألعاب أولا، وبعدها الصندويش والكولا.

الأم تعلق:

ـ ثم المرطبات أخيراً.

هادي يضيف:

ـ سنبقى إلى منتصف الليل.

أعلق مازحاً:

ـــــ أنا وأمك وهديل سـنرجع إلى البيت، سـتنام أنت وأختك هدى في الحديقة.

هدى ترد:

ـ الحديقة تغلق عند منتصف الليل، مثل قصر سندريلا.

أضيف:

ـــ صدقت، وعلينا الخروج قبل دقات الساعة، ونحرص ألا يسقط حذاء أحدنا.

ومن الأرجوحة إلى الخيول الدوّارة، ومن سـفينة نوح إلى الطائرات العمودية.

أنا وهدى في طائرة عمودية، زوجتي وهادي وهديل في طائرة، أشـد مقبض الطائرة فترتفع، طائرتنا بمسـتوى طائرة زوجتي، هي أمامنا، نرميها بقذائف الأضـواء، فتعلو، فلا نصـيبها، ومن ورائنا تصـيبنا قذائف ضـوئية، فنهبط.

وعلى الأرض نهبط، ونحن نقول:

ـ الحمد لله على السلامة.

ونمضي إلى السيارات الكهربائية.

هدى وهادي وهديل في سيارة، والسيارات تصدمهم من كل جانب، وهم يضـــحكون، ويأبون إلا الاســـتمرار في اللعب، وشـــراء بطاقات جديدة، ولا يغادرون سيارتهم.

أفاجئ زوجتي، أشـــتري بطاقتين، ثم أشـــدّها من يدها، وأقعد معها في سيارة، ونمضـي في الحلبة نصد السيارات المهاجمة لسيارة أولادنا، ولكن لا أعرف كيف يأتينا الهجوم من هنا وهناك، اصـــطدامات مروِّعة، وضـــحكات عالية، وشرر يتطاير من تحت السيارات، وأضواء تعلو وتخفت.

ما أحلى الانطلاق، وما أجمل الاصطدام، مع أنه مروع، ويخض الجسم، ولكنه ممتع، هو مزاح ولعب، لا خطورة فيه ولا غضب منه.

ونمضي نحو بركة تسبح فيها إوزّات مرحة، إوزات حقيقية حية، برقاب نـاعمـة، وهي تـدفع المـاء بـأرجلها، والنـاس يلتفون حول البركة ويلقون بحلقات خشـــبية، من تســـقط حلقته في عنق إوزة له هدية، وثمة ثلاثة عمال يلتقطون بِعِصِيٍّ طويلة الحلقات الساقطة في الماء، وما أكثرها، والإوزات لا تمكّن أحداً من أعناقها.

ونشتري بضع حلقات، نرمي أكثر من عشر حلقات، وتأبى هديل إلا أن ترمي حلقـة، وترمي هـدى حلقـة، وإذا هي تطوق عنق إوزة، والإوزة تغط رأسها في الماء تريد التخلص منها.

ويناول صاحب البركة ابنتي قبعة قش كبيرة، يقول لها:

ـ هذه هديتك.

ثم يناول هديل قبعة قش أخرى صغيرة.

وتعلق زوجتي:

ـ أريد الإوزة هدية لا القبعة.

ويرد مازحا، وهو يناولها حلقة خاصة صغيرة جداً بحجم السوارة، وهو يقول:

ـ تفضلي ارمي هذه الحلقة، أدخليها في عنق الإوزة، والإوزة لك.

ونضحك ثم نمضي نحو الناعورة التي تكاد تصل إلى النجوم في علوها، وقد خيمت العتمة، وحل المساء، هدى تعلق:

ـ لا بابا، أرجوك.

أرد:

ـ لا تخافي، هي حُجُرَات مغلقة، آمنة، أنا وأنت وهديل في حُجْرة، وأمك وهادي في حُجْرة.

ونسـمع أصـوات اسـتغاثة، وجلبة ونرى الناس يسـرعون نحو طرف الحديقة.

أصوات تتصايح:

ـ الولد اختنق.

ـ رأسه انقطع.

ـ نادوا مدير الحديقة.

ـ اطلبوا رجال الإنقاذ.

الأولاد يذعرون. أقول لهم:

ـ قفوا هنا، لا تتحركوا.

وأدخل بين الجموع، ثم أرجع لأقول لهم:

ـ لا تخافوا، الأمر غير خطير، لكن أحس أنا بالذنب والمسؤولية.

زوجتي تسألني:

ـ ولماذا؟

أردّ:

ـ كان علينا دفع ثمن تذكرتين وإدخال الولد مع أمه.

زوجتي تسأل قلقة:

ـ قل لي ماذا حصل؟

ـ اطمئني، الولد نفسه الذي رأيناه مع أمه عند باب الحديقة، أراد الدخول في العتمة من هذه الجهة، مدّ رأسـه بين قضـبان السـور الحديدي، وفاجأه الحارس، ولم يستطع إخراج رأسه وقد انحشر بين القضيبين.

هدى تصيح وهي تبكي:

ـ بابا، بابا.

زوجتي تعلق:

ـ حارس، غبي، وحش.

أقول لها:

ـ لا، الرجل طيب، كان يقوم بواجبه بشكل طبيعي، لكن الولد ارتبك، كل الناس شهدوا بذلك، والحارس نفسه الآن يطمئن الولد ويعالج الموقف بهدوء.

ونسمع أصوات تصفيق، وينفضّ الجمع، ونقترب، فنرى الولد وأمه واقفين وراء قضبان سور الحديقة يتفرجان على الألعاب من الخارج.

دائماً أُسْرِعُ في الصعود إلى الحافلة، أمضي إلى عمقها، أقعد إلى جوار النافذة، وأمنِّي النفس بقعود سيدة إلى جواري.

هنا في عمق الحافلة، في المقعد الأخير، يسهل الصيد، ولا يمكن أن يتنبّه إلينا أحد.

مرة قعدتْ إلى جواري سيدة، والتصقتْ بي، سُرِرْتُ كثيراً، وأخذتُ أقتربُ بفخذي من فخذها، وأضغط، وهي لا تمانع، ولكن تنبَّهتُ بعد قليل، إلى أنّ ما كنتُ أضغط عليه لم يكن سوى حقيبتها الجلدية التي وضعتْها هي بيني وبينها، ومرة قعدتْ إلى جواري سيدة نحيلة جداً، وأنا نحيل مثلها، ومع ذلك فقد انتحت بعيداً عني، حتى كان من الممكن أن يقعد شخص ما بيننا، أحسست يومها بالضيق الشديد منها، ومن طريف ما في الأمر أن رجلاً بديناً قعد مرة إلى جواري، والتصق بي، وكاد يخنقني، وسرعان ما فتح جريدة، وأخذ يقرأ فيها، وبين لحظة وأخرى كان يقلب صفحاتها، فيأتي كوعه في صدري، ولما أردت النزول لم ينهض ليفسح لي المجال، بل تركني أمر أمامه وأنا أتعثر بقدمه، ومرة قعدت بجواري سيدة ووضعت طفلها الصغير بيني وبينها، وكان معه قطعة حلويات، وتناثر على أطراف سترتي فُتاتٌ من الحلوى، وأمه لا تنبهه، بل كانت تسر لتماديه في مضايقتي، ومرة قعدت إلى جواري سيدة أكثر بدانة من ذلك الرجل، وكانت متعرّقة، وما تفتأ تميل عليّ، وتمد وجهها نحو النافذة، تحاول تنسم الهواء منها، وهي تنفحني أنفاسها اللاهثة، والعرق يسح على طبقات اللحم في عنقها، فما كان مني إلا أن نهضت، أخليت لها مقعدي، وقلت لها: "تفضلي اقعدي إلى جوار النافذة"، ومرة أيضاً قعدت إلى جواري صبية، تحمل دفاتر وكتباً تحتضنها إلى صدرها، هي طالبة جامعية، من غير شك، سررت كثيراً، وبدأت أقترب منها ببطء، وأنتظر انعطاف الحافلة حتى أميل عليها، ولكن بعد موقف أو موقفين، صعدت صبية في عمرها، تحمل كتباً ودفاتر، هي جامعية مثلها، فأشارت إليها، فأسرعت نحوها، هي على ما يبدو زميلتها، وتناولت منها ما كانت تحمله من كتب ودفاتر ووضعتها في حجرها، ثم اقتربت مني والتصقت بي بشدة وقالت لزميلتها: "تعالي اقعدي إلى جواري،

المقعد يتســـع، نحن الثلاثـة من حجم واحـد"، وقعـدت زميلتهـا إلى جوارهـا، فالتصــقت الأولى بي أكثر، بل أخذت تدفعني بكتفها، كأنها تريد الرمي بي من النـافذة، ثم التفتت نحوي لتقول لي:" ســـامحني، ضـــايقتك، أنت مثل أبي"، وسرعان ما نهضتُ، أخليتُ لهما المقعد، ثم غادرتُ الحافلة، وأنا أحس بالقهر والضـــيق، ومن يومها غيرت من عادتي، ما عدت أبحث عن مقعد خال، ولا أمضي إلى عمق الحافلة، بل بدأت أقعد إلى جوار رجل، وما عدت أتمنى قعود سيدة إلى جواري، حتى إني إذا رأيت مقعداً خالياً إلى جوار سيدة بدأت أتجنب القعود فيه.

لكن حدث مرة أن كنت في الموقف أنتظر، والتفتُّ فرأيتها قادمة نحوي، وفي لحظـة واحدة ابتســـم كل منـا للآخر، ووقفت هي بجواري، من غير أن تكلمني، وأنا أحس بطيف الابتسامة لا يغادر وجهها، ومع قدوم الحافلة، دعوتها الصـعود في الحافلة قبلي، بل وضـعت كلتا يدي حولها، وتشـبثت بطرفي باب الحافلة، كي لا أسمح لأحد بالصـعود وراءها، ثم صـعدت مباشـرة خلفها، وأنا أكاد ألتصق بها، وبصورة عفوية أشرتُ إلى المقعد الأخير في العمق، ففهمت قصـدي، واتجهتْ هي إليه بكل رضـا، وبصـورة عفوية أيضـاً، ثم دعوتها إلى الدخول في المقعد قبلي، لتقعد هي إلى جوار النافذة، ثم قعدت أنا إلى جوارها، وسرعان ما التصقتُ أنا بها، كتفي لصق كتفها، وفخذي لصق فخذها، وساقي تحتك بســـاقها، وهي لا تمـانع، وماذا يمكنها أن تفعل، هل تخرج من النافذة، وهي محشـورة إلى جوارها؟ بل أخذت أحك حذائي بحذائها، وتمنيت في لحظة لو أخلع حذائي لأحك أصـابع قدمي بسـاقها، ثم أخذتُ أضـغط بكتفي على كتفها أكثر، وتوقَّد جسـمي، أحسـسْـتُ كأن عملية نقل دم تجري بيني وبينها، أو كأن عملية شحن تجري بين البطارية في سيارتي إلى البطارية في سيارتها، كيمياء جسمي تفاعلت، حركة دوران دمي تغيَّرت، وتجرأتُ فوضعتُ يدي على مسند المقعد وراء رأســـها، أحطتُها بذراعي، وهممتُ بمداعبة خصـــلات شـــعرها، والتفتُّ إليها أودُّ تقبيلها، فهمستْ: "لا تستعجل، في البيت نفعل كل شـيء"، ثم أحسـستُ أنها سوف تنهض، نهضـتُ قبلها، فسـحتُ لها الطريق، أحطتُها بكلتا ذراعي، أحميها من الزحام، لا أسـمح لأحد بمسِّـــها، وأنا أقول: "إذا ســمحتم، افسحوا الطريق"، ونزلتُ وراءها، وفوراً تأبطتُ ذراعها، وسرنا متلاصـقين،

وأمام بائع الفروج اشتريت فروجة مشوية كبيرة مع الثوم والبطاطا والمقبِّلات، اشـتريت زجاجة كولا سـوداء كبيرة، وفي درج العمارة، ضـعتُ بين رائحتين: رائحتها ورائحة الفروج المشـوي، وهي منصـاعة مسـتسـلمة، حتى إنها حملت زجاجة الكولا بنفسـها، ولعلها كانت تحلم بأكثر مما كنت أحلم، وأحسـسـتُ أنها تعدني بأشـياء وأشـياء، وأمام باب الشـقة، وضـعتُ المفتاح في الباب، وما إن انشق عني وعنها حتى تراكض الأولاد نحونا وهم يتصايحون:

- بابا.
- فروج.
- كولا.
- ما ما ...ماما...ماما.

السكين على جانبي

من بـاب الجـامع أخرج، أنـا أول من غـادر الجـامع، لا أعرف كيف سأركض إلى البيت، أمشي بسرعة، أخبئ الضحكة، أرى يدي الاثنتين ملوثتين بالدماء، لا صابون الغار البلدي ولا صابون فاي الأجنبي يمكن أن يغسل عنهما آثار الدماء، هذه المرة دماء مختلفة، دماء بشـر، لا بد أن أسـتهلك علبة غسـل الصـحون كلها، أتأمل جلابيتي البيضـاء النظيفة المتألقة كالثلج، وأضـحك، لا أحد في الشـارع، لم يخرج بعد أحد من المصـلين، ثمة أولاد يلعبون أحاول تفادي المرور بهم، حتى لا يروني وأنا أضحك.

*

لا أعرف كيف وجدت فجأة السكين إلى جانبي الأيمن، كالعادة، شـمطتها من بيتها الجلدي، وأعملتها في عنق الرجل، عنقه غليظ، كالثور، لا أعرف لماذا قعد أمامي، سـد كل شـيء، كأنه حائط، والرجل الثاني إلى جواري زحمني، دفعني في كتفي، وإذا سكيني تحز عنقه، لكن لا أعرف ماذنب الرجل الثاث والرابع على يميني، ولا أعرف ماذنب الرجال الخمسـة الآخرين على شمالي، أنا عصبي، سريع النزق، ويدي لا تعرف سوى اللعب بالسكين، الدماء تنصب من أعناقهم، والسكون مخيم، وخطيب الجمعة على المنبر يرفع صوته ويشير بيديه.

*

يوم الجمعة هو أكثر الأيام بغضـاً عندي، لا أحب يوم الجمعة، أسـتيقظ مبكراً، كعادتي، لا أستطيع النوم إلى الضحى كعادة أكثر الناس، هم كالغنم، لا يعرفون سـوى الأكل والشـرب والنوم، الغنم يأكل ثم يقعد ليجتر ما أكله، وهم يأكلون ثم يقعدون ليأكلوا مرة ثانية وثالثة، وفي الجامع يغلبني النوم، لا أعرف لماذا؟ الخطيب على المنبر وهو يشـير بيديه، وأنا أحملق فيه، أفتحهما على الآخر، أشـد جفني، أحاول فهم ما يقول، لكن النوم يغلبني، السـكون والهدوء والصـمت والبرودة والهواء الناعم والنوافذ الواسـعة المفتوحة والنور الهادئ

المنساب منها أحس بها جميعاً مثل جلد خروف صغير ناعم أستلقي فوقه فأنام، هنا أرتاح، لكن، هي عشر دقائق، وتمضي، وأرجع من الجامع، وبعد ذلك تبدأ المشـــكلة من جديد، إلى أين ســـأذهب؟ الســـوق مغلق، المحلات مغلقة، ماذا سـأفعل؟ يداي لا تفعلان أي شـيء، أحس أني مقيد، مشـلول الحركة، لا أعرف ماذا أفعل؟ هل أفرم البصـــل في المطبخ مع زوجتي؟ هل أخطف قطتها المدللة وأمضـي بها إلى الشـرفة وأذبحها وأتخلص منها؟ ألا تكفيني قطط السـوق، هو خطئي أنـا، كل يوم أجلب لقطتهـا أشـــهى طعام، لم تذق مثله قطط البلد كلها، نسـيت أن أحكي لزوجتي، مر على زواجنا عشـر سـنوات، حكيت لها عن كل شـيء في حياتي كلها، لكن ما حكيت لها، وأنا في العاشـرة، رجعت إلى البيت من اللعب في الشـــارع مع الأولاد، لم يكن في البيت غير جدتي، أمي وإخوتي ذهبوا إلى بيت خـالي لمعـايدتهم، أبي لم يـذهب معهم، أبي كان ما يزال يذهب إلى بيوت الأغنياء، يذبح لهم أضـــحيات العيد، وكنا يومئذ في اليوم الثالث، ما أزال أذكر بالتفصـيل، كيف أمسـكت قطة الدار، وأسـرعت بها إلى المطبخ، اسـتللت السـكين، وضـعت القطة على الأرض، وضـعت قدمي فوق عنقها، وحززت عنقها، وهي تموء، وإذا جدتي في الباب تصيح: ماذا تفعل؟ حرام هذه قطة، وانتبهت، الحمد لله لم أذبحها، من عجلتي وتسـرعي كنت أضـع السـكين بالمقلوب، شفرة السكين لم تكن فوق عنقها، أخذتني جدتي بين ذراعيها، وقالت لي: "انتبه يا ولدي إلى دروسك، الدراسـة أفضـل لك، لا أريد لك هذه المهنة"، لا أنســـى تلك الأيام، طوال أيام العيد ما كنا نرى وجه أبي، من حي إلى حي، وهو يذبح الأضـحيات، في هذه الأيام ما عاد أحد يذبح، حتى الأغنياء، ما بقي غير التضحية بأولادنا مثل إبراهيم الخليل، ولن ينزل علينا كبش الفداء.

*

أصل إلى العمارة، أسيطر على نفسي، أمنعها من الضحك، أصطنع الجد، تفتح لي زوجتي الباب، أصيح بها:

ـــــ أنت المسـؤولة، كيف تركتني أخرج إلى الصـلاة بجلابية الشـغل، والسكين إلى جانبي، انظري إلى يدي الاثنتين.

تنظر مدهوشة، تحاول الكلام، أصيح بها:

ـــــ لا تتكلمي، انظري، ذبحت عشـرة رجال أو عشـرين، ما أعطيتني الجلابية البيضاء، جلابية صلاة الجمعة.

تحدق بي، تنظر مدهوشة، وهي تقول:

ـ يا رجل، انظر إلى المرآة.

أصيح:

ـــــ لا مرآة، ولا أي شيء، أنت انظري إلى يدي الملطختين بدم الرجال، الحمد لله، ما رآني أحد وأنا في الطريق.

تتكلم:

ـ يا رجل، أنت والله في جلابيتك البيضاء، جلابية يوم الجمعة، ولا نقطة دم على يديك.

وأضحك، أضحك، أنفجر في الضحك، ألتفت إليها، وأنا ما أزال أضحك، وأقول لها:

ـــــ اسمعي، سرقتني غفوة صغيرة، وأنا في الجامع، فرأيت نفسي ذبحت عشـرة رجال عن يميني وعشـرة عن يسـاري، وانتابتني نوبة من الضـحك، غادرت الجامع بسرعة، حتى قبل أن أتم صلاتي.

تضحك، تعلق:

ـ الحمد لله ما ذبحت الإمام.

أكف عن الضحك، ينتابني القلق، أصمت، ألتفت إليها، أستند على كتفها، أقول لها:

ـــــ سامحيني يا ندى، أبغض الأيام إلى نفسي هو يوم الجمعة، لا أعرف ماذا أفعل، أحس بيديَ الاثنتين مشـــلولتين، أحس أني لا أعمل، لا أفعل أي شيء.

تعلق:

ـ اطمئن جاءك عمل.

وما هو:

ـ اتصل بي وأنت في الصلاة رجل.

ـ هل هو من زبائني؟ ما اسمه؟ ماذا يريد؟

ـــ ما أعطاني اسمه، لكن أعطاني رقم هاتفه وعنوانه، كان نذر إذا جاءه مولود ذكر أن يذبح.

أسألها ممازحاً:

ـ وهل سيذبح الولد.

تضحك، تعلق:

ـ بالطبع لأ، سيذبح له خروف النذر.

أخلع الجلابية البيضاء، أقول لها:

ـ هاتي جلابية العمل، ولا تنسي السكين، ضعيها على جانبي الأيمن.

وأنا أهم بالخروج، أغمغم:

ـ الحمد لله، جاء الفرج.

وألتفت إلى زوجتي وأقول لها:

ـ والله لولا هذا الرجل لكنت ذبحتك أنت وقطتك، لا بد كل يوم من اللعب بالسكين، يدي معتادة، اليوم الذي لا أذبح فيه لا أحس بوجودي فيه.

تسألني:

ـ بالله عليك، قل لي: كيف يطاوعك قلبك فتذبح الخروف.

أقول لها:

ـ عندما أرجع، أحكي لك، سأذبحك أنت وقطتك.

زغرودة طويلة

الساعة تشير إلى الرابعة عصراً وأبو نديم لم يرجع من وظيفته، ليس من عادته التأخر، ولا سيما يوم الخميس، فهو ينصرف قبل ساعة، في الثانية والنصف، لا في الثالثة والنصف.

وتحاول طمأنة نفسها.

لعله مر بالسوق لشراء الطعام، واليوم هو أول الشهر، بل لعله تأخر حتى يقبِّض كل الموظفين في المؤسسة رواتبهم، ثم أراد الاطمئنان، فأخذ يجري كشفاً بالحساب، ويراجع الجداول، بعد انتهائه من تسليم الرواتب، ولكن من عادته أن يراجع السجلات والدفاتر في البيت؟

وتشير الساعة إلى الثامنة مساء، إلى التاسعة، إلى العاشرة.

وتحاول عدة مرات الاتصال بهاتفه الجوال، لكنه مغلق.

وتتصل بابنها بشير:

ـــ أبوك لم يرجع إلى البيت، الساعة الآن الحادية عشرة، ولم يتصل، وليس من عادته التأخر.

ـ لعله تزوج.

تضحك ببرود، وتقول:

ـ أبوك ما عاد ينفع في شيء، وصل إلى الستين، لو أراد الزواج لتزوج قبل عشر سنين.

وينتصف الليل، وتتصل بابنها عدنان، ويأتيها الرد ساخراً:

ـ لعله شارك في مظاهرة فاعتقل.

وتضحك ببرود، وتعلق:

ـ أبوك ليس من هذا النوع، طوال عمره ما تكلم على السياسة.

وتفكر في الاتصال بأخواته الثلاث، وإخوته الأربعة، ولكنها لا تريد نشر الخبر في الأسرة.

وهو لا يزور إخوته ولا أخواته إلا في الأعياد والمناسبات الضرورية، وطوال حياته لم ينم خارج البيت.

في صباح اليوم التالي تتصل بابنتها الوحيدة منى، وتخبرها بغياب أبيها عن البيت.

وتعلق البنت مازحة:

ـــــ لعله حمل حقيبة الرواتب وفر بها إلى خارج البلاد، في الشهرين الماضيين كان يتكلم على الديون المتراكمة عليه.

ينفجر القلق في رأس أم نديم، وتعلق ساخرة:

ـ أبوك جبان، يموت ولا يهرب، وما عنده جواز سفر.

*

وتثور الشكوك في نفسها. لعله اختطف، وقاده المختطفون إلى شقة وقيدوه وأغلقوا جواله، أو سرقوا جواله، أو قادوه في سيارة إلى خارج المدينة وقتلوه.

*

وتتصل بابنها بشير، وترجوه السؤال عن والده في المستشفيات أو في مخافر الشرطة، هل بلّغهم أحد عن جريمة قتل أو اختطاف أو سرقة.

ولكن ابنها بشير يقابلها ببرود ويقول لها:

ـ انتظري إلى بعد ظهر هذا اليوم، لعله ذهب إلى أحد المساجد واعتكف فيه، وسيرجع بعد صلاة الجمعة.

أم نديم ترد بسخرية:

ـ أبوك لا يصلي لا العيد ولا الجمعة ولا يعرف باب المسجد، الله يرضى عليك، اذهب إلى المشافي واسأل عنه.

وتعيد الاتصال بابنتها، وتقول لها:

ـــــ الله يرضى عليك يابنتي، زوجك صالح، ما شاء الله، عنده كثير من المعارف والأصحاب، ويده تطول، اطلبي منه السؤال عن والدك.

وترد البنت:

ـــــ زوجي ذهب إلى زيارة أمه، كل يوم جمعة يصلي في المسجد بجوارها، ويتناول غداءه عندها، ولا يرجع حتى العصر، أنا سأتصرف.

بعد ساعة تتصل بها ابنتها منى، فتقول البنت:

ـــ أنا اتصلت بمديره، أبي ذهب إلى البنك ليقبض الرواتب، وقبل نهاية الدوام اتصـــل أبي بالمدير وأخبره أنه لم يســـحب رواتب الموظفين، وأنه لن يرجع إلى الوظيفة، سيذهب إلى البيت.

*

أم نديم ترتاح قليلاً، تطمئن نفسها.

الحمد لله، لم يســـحب رواتب الموظفين، فلا توجد جريمة قتل ولا اختطاف ولا سرقة ولا هرب إلى خارج البلاد، أنا أعرف، أبو نديم لا يفكر في مثل هذا، طوال عمره ما جرحني بكلمة، ولا غضب مني، هو مسالم محايد، اشتهيت لو مرة واحدة صرخ في وجهي، النملة إذا رآها لا يدوس عليها، فكيف يسرق الرواتب ويهرب؟ لكن إذا كان لم يقبض الرواتب، كما قال هو للمدير، ولم يرجع إلى الوظيفة، فأين ذهب؟ هل أصيب وهو في الطريق بجلطة؟ هل ضربته سيارة؟ هل تزوج؟ هل عنده امرأة أخرى؟

مرة قال له ابني عدنان وهو يشير إلى مغنية في التلفزيون: "والله النفس تشتهي امرأة من هذا النوع، ما رأيك، يا أبي؟"، ونظر إليه، وقال له: "احتشم، أمك قاعدة"، وأنا علقت حينها وقلت: "أبوك ما عاد ينفع لشيء"، يومها نهض ومضـــى إلى غرفته ونام، الحقيقة ندمت، على ما قلت، لكن ابني عدنان أثار غضبي، وقال: "أنت يا أمي، سامحيني، كلامك شديد القسوة على أبي، كلامك كله عتب ولوم، قبل يومين في الســـهرة شـــكا من قلة الراتب، وأنت قلت له أمامنا: أنت غشيم، لا تعرف كيف تدبر أمورك، ونظرنا كلنا إليه، صمت ، ما حكى أي كلمة، وبعدها قلت له: عندك أكثر من مئة وخمسين من الموظفين، إذا اقتطعت من راتب كل موظف مئة ليرة، زاد راتبك ألف وخمسمئة، كنا عشنا في نعيم، أنا أعرف، أنت تعطي الموظف راتبه بالتمام والكمال، لا تقتطع لنفسك مراتبه أي ليرة".

وهذه هي الحقيقة، أبو نديم دقيق في الحســـاب، لكن لا أعرف لماذا لا يقتطع لنفســـه من راتب كل موظف مئة ليرة على الأقل، حتى إذا كان في الراتب أقل من عشـــرين ليرة أعطاه إياها، لا أعرف، هل هذا عن عزة نفس؟ عن إباء وكرامة؟ عن تديُّن وخوف من الله؟ الحقيقة لا أعرف لماذا عفة النفس هذه؟ أظن هي مجرد جبن وخوف حتى لا يتكلم أحد عليه.

***

ويمر يوم الجمعة بطوله، عند المساء، تتصل بابنتها منى:

ـــ منى، اليوم الثاني يمر وأبوك ما رجع إلى البيت، قول لي ماذا أفعل؟ هل رجع زوجك إلى البيت؟ اطلبي منه فعل أي شيء.

وترد منى:

ـ صالح الآن نائم، سأحدثه فور استيقاظه.

وتصمت ثم تضيف:

ـ والله، يا أمي، أنت السبب.

وتسأل مستنكرة:

ـ كيف؟

ـ نسيت؟ الأسبوع الماضي، مثل هذا اليوم، الجمعة، كنا عندك أنا وأخي بشير وأخي عدنان، قلت له: الفرن الكهربائي تعطل، خذه غداً إلى المصلح، وقال لك: غداً السبت عندي عطلة، لا أحب الخروج من البيت، أريد الراحة، هل تذكرت ماذا قلت له؟

ـ والله نسيت، ذكريني.

ـــ قلت له أنت ما عدت تقدر على شيء، أنت تقاعدت قبل ما تتقاعد، واحمر وجهه، نهض، مضى إلى الشرفة، وما نطق بأي كلمة.

أم نديم تغلق سماعة الهاتف، وتغمغم:

ـ إلى جهنم، وبئس المصير، غداً يخرج من مخبئه ويذهب إلى الوظيفة، يخشى غياب يوم، لا بد، سيلتحق بالوظيفة، لكن غداً السبت عطلة، لا بأس، سأنتظر إلى الأحد.

*

وفي صباح اليوم التالي، السبت، يرن الهاتف، ويأتيها صوت:

ـــ أنا مدير المؤسسة التي يعمل فيها زوجك، اتصلت اليوم بمدير البنك، زوجك سحب رواتب كل الموظفين.

وترد:

ـ لكن اليوم عطلة.

ـ أعرف، مدير البنك يداوم بشكل خاص مع بعض الموظفين.

وتسأل:

ـ لكنه أخبرك أنه لم يسحب...

يقاطعها:

ـ كذب عليَّ، كذب، حتى يهرب بالرواتب.

ـ وإلى أين هرب؟

ـ أنا لا أعرف، هو زوجك وأنت أدرى به مني.

ويصمت ثم يسألها:

ـ هل رجع زوجك إلى البيت وخبأ المبلغ كله؟

ـ أنا سألتك عنه وأخبرتك عن غيابه.

ـ لعلك متفقة معه.

ـــــ أنا؟ لا أنا ولا زوجي من هذا النوع، وزوجي طول عمره ما فكر بسرقة ليرة، وبصراحة، لا عن دين ولا تقوى ولا عن أخلاق، لكن عن خوف، أقول لك بصراحة، زوجي ضعيف جبان.

ـ لا أقتنع بهذا الكلام، سأطلب من الشرطة تفتيش المنزل.

ـ تفضل، أنت والشرطة، زوجي ما رجع إلى البيت.

وتتصل بابنتها منى:

ـــــ منى، حبيبتي، تعالي إلي، هاتي بنتك دلال معك، المدير سيحضر الشرطة لتفتيش المنزل.

وتخبرها بما قاله المدير، البنت تعلق:

ـ لا أصدق، أبي يكذب على المدير، ويقول له ما سحبت الرواتب؟

وترد الأم:

ـــــ هذا هو كلام مدير البنك لمدير المؤسسة، ومدير البنك لا يكذب، وما معنى هذا؟ أبوك كذب على المدير.

***

وتأتي البنت إلى بيت أمها السبت مساء، تنام عندها مع زوجها صالح وابنتهما دلال.

صالح يقول لها:

ـــــ اطمئني، عمي أبو نديم لم يغادر البلد، أنا لي أصـــدقاء في الأمن، ضـــربوا على اســـمه في الحدود، فلم يجدوا له أي اســـم، إلى أين ســـيهرب بالرواتب؟ لا أتوقع هذا من عمي.

في الصـــباح يغادر صـــالح إلى عمله، وتقعد الأم مع ابنتها وحفيدتها، تنتظر قدوم الشرطة لتفتيش، وهي لا تعرف ماذا تفعل.

وتتصل بابنها بشير:

ـ أرجوك، بشير، اتصل بالمشافي، اسأل عنه.

ـــ اتصـلت، وسـألت، وزرت أحد المشـافي ورأيت جثة رجل ضـربته سيارة، ما هو أبي.

تعلق الأم:

ـ الحمد لله.

حتى الثانية بعد الظهر لم تحضر الشرطة، ولا المدير اتصل، ويحضر بشير وعدنان، يلتم الأولاد حول الأم.

ويتكلم بشير:

ـ بدأنا نقلق، هناك مشلكة.

وتعلق الأم:

ـــ الآن بدأ القلق على أبيكم؟ الآن صار مقامه مقام الأب؟! طول عمركم ما أحســـســـتم أنه أب، لا يعرف الواحد منكم غير طلب المصـــروف، وبعد زواجكم، ما عاد أحد منكم يفكر فيه، ولا يسأل عنه.

وتعلق البنت:

ـ وأنت يا أمي، دائماً، هذا هو كلامك له: أنت غشيم، أنت لا تعرف كيف تدبر أمورك، الأموال بين يديك ولا تفعل أي شيء، كل المحاسبين أعضاء في لجان الشـــراء، وكل واحد منهم له نســـبة، وأنت ماعرفت كيف تدخل في أي لجنة، عشنا حياتنا كلها معك في فقر، هذا هو كلامك دائماً معه.

الأم تصيح بابنتها:

ـ يكفي، يكفي، أقول لك الحقيقة، ولا تزعلي....

ـ تفضلي

ـ نعم، أبوك ....ماذا أقول

ـ قولي
ـ ما هو رجل
عدنان ينهض غاضباً، ويقول:
ـ وهل نحن أولاد حرام، أولاد زنى؟
الأم تصيح:
ـ لأ، هو رجل في الفراش، لكن ما هو رجل في المجتمع، مع الناس.
منى تعلق:
ـ وهل الرجل في نظرك من يقتل ويسرق ويزني؟
ـــ لأ، لكن على الأقل، لا أعرف ماذا أقول، لو كان يتحرك في المجتمع بين الناس..يأخذ ويعطي...
بشير يعلق:
ـ من يوم زواج أختي منى من صالح تغيرت أمي، ما عاد أبي يعجبها.
منى تضيف:
ـــ طبعاً، صالح تاجر، ويده تطول، وعهده علاقات واسعة، وقادر على التصـــرف، وهو كريم، غمرنا بخيراته، لكن مقارنة أبي به جريمة لا تغتفر، أبي موظف محدود الدخل، ولا يستطيع فعل شيء، كان الله في عونه.
ويعلق عدنان:
ـ والله أمك يا منى هذه هي، دائماً تقسو على الوالد بالكلام، الله يكون في عونه، كما قلت، موظف ودخله محدود، ماذا يفعل؟
أم نديم تلتفت إلى عدنان وتسخر منه قائلة:
ـــ الآن أشفقت على الوالد، ماشاء الله؟ ونسيت أنت أول من كان يلاحقه بالطلبات حتى بعد زواجك، ما استراح منك.
ويقرع الباب، ويدخل صالح ليقول لهم:
ـ أنا قمت بجولة على شركات النقل الداخلي، كلهم أصحابي، فعرفت أنه سافر الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الخميس إلى الساحل.
الأم تعلق:
ـ الآن فهمت، هذا أخذ رواتب الموظفين وراح إلى البحر ليمضي يومين ثلاثة، دائماً كان يقول لي: "والله أشـتهي لو أمضـي أربعة أيام أو خمسـة في

ضـيافة أحد، أو في فندق، أو في مسـتشـفى، أرتاح من البيت والشـغل والعمل والوظيفة والدوام ومن الدنيا كلها"، هذا كلامه دائماً، الآن عرفت، فعلها أبو نديم، لكن بأي وجه سـيرجع ليقابل المدير والموظفين، وكيف سـيدفع لهم الرواتب؟

ويعلق صالح:

ــ لا تقلقي، أنا سأدفع كل ما يترتب عليه، فور عودته، أنت ادعي الله له العودة بالسلامة.

تغمغم:

ـ الله لا يرده.

***

ويرن جرس الهاتف:

وتسرع الأم إلى الهاتف، ويأتيها صوت المدير:

ـ هل ذكر زوجك مرة اسم نوال؟

وتسأل بحدة:

ـ نوال، من نوال؟

المدير يتكلم:

ـــ أنا أسألك: هل ذكر زوجك مرة هذا الاسم، هل بين أوراقه صورة لنوال أو أي امرأة؟

ـــ زوجي طول عمره ما ئكر اسم غير اسم أمه، لا نوال ولا منال ولا جلنار، لكن من نوال؟

المدير يرد بإيجاز:

ـــ موظفة، عندنا، انصرفت يوم الخميس قبل ساعتين، واليوم الأحد ما جاءت إلى الدوام، وسألنا أمها، قالت: ذهبت مع زميلاتها في المؤسسة في رحلة إلى البحر، وما أحد تغيب اليوم عن العمل، غير هي وزوجك.

وتسأل:

ـ وهل كان عندكم رحلة إلى البحر؟

ـ لا رحلة ولا أي شيء.

ـ وهل هربت معه؟

ـ طبعاً، هذا واضح، زوجك قبض رواتب الموظفين، وهرب مع موظفة صبية بعمر بناته، هي دون الخامسة والعشرين، ولولا سمعتها السيئة ما هربت معه.

ـ وكيف توظفت وسمعتها سيئة؟

ـــ هي موظفة بعقد مؤقت لستة أشهر، وكنا على وشك إلغاء عقدها، ولا أعرف كيف هربت معه؟

*

وتلتفت إلى أولادها، تلخص لهم مضمون الاتصال، وتعلق:

ـ طوال عمره ما ذكر أي موظفة، وماذا سيفعل معها في البحر؟ وهو لا يعرف السباحة؟

البنت تضحك:

ـ لن يسبح في البحر يا أمي، سوف يسبح في الفراش، يبدو كلامك جعله يصير مثل الرجال.

الأم تنظر إليها بحدة:

ـ ومع صبية أصغر منك، المدير قال هي دون العشرين؟

البنت تعلق:

ـ هي تعلمه السباحة.

الأم تضيف، وكأنها تكلم نفسها:

ـ وقال: هي سيئة السمعة، للأسف، ما عرف غير الهرب مع واحدة سيئة السمعة، على الأقل لو هرب مع واحدة سمعتها جيدة، وبنت ناس.

البنت تعلق:

ـ بنت الناس لا تهرب مع رجل في الستين، ولولا...

صالح زوج منى يقاطعها ويتكلم:

ـــ أرجوكم، ليس الآن وقت هذا الكلام، أنا ذاهب إلى السوق لإحضار طعام جاهز، لن نبقى بدون غداء.

ابنته دلال وهي الخامسة من عمرها تتعلق به، وتقول:

ـ بابا، خذني معك، أنا أريد فروجة مشوية، بابا خذني معك.

الجدة تعلق:

ـ امسكي يد والدك، لا يهرب منك، مثل جدك.

منى تعلق:

ـ أنا أعرف زوجي، وأنا طول عمري ما قلت له كلمة قاسية.

صالح يخرج مع ابنته دلال، الأم تصيح بابنتها:

ـ الله يغضب عليك، أعرفك، أنت وإخوتك، دائماً ضدي.

عدنان يلتفت لأخيه وأخته يقول لهما:

ـ الأفضل ترك أمنا وحدها، أنا نصيحتي تعالوا، ليرجع كل منا إلى بيته، وجودنا يزيد الأزمة، ولا ينفع في شيء.

بشير يعلق:

ـــ صدقت، الآن عرفنا كل شيء، واستراح بالنا، الوالد الحمد لله بخير، وبعد يومين يرجع إلى وظيفته، بعدما يمل من البحر.

عدنان يضيف:

ـــ أنا لا أتوقع بعد يومين، قل بعد أسبوع، بعد ما ينفد كل ما سرق من رواتب.

ويغمز بعينه نحو أمه، ويقول:

ـــ وبعد ما يمل من التي اسمها منار، منال، نوال، والله نسيت اسمها، ويشتاق إلى أمي، حتماً سيرجع، وصالح، زوج أختي، سيتكفل بكل شيء.

الأم تعلق:

ـــــ روحوا، الله معكم، أنا لي رب لا ينسـاني، أنا أعرف، أنتم وأبوكم سواء، لا يرتجى منكم أي خير.

البنت تلتفت إلى أخويها، تقول:

ـــ لا، ياعدنان، ولا يابشير، نحن سنبقى، لن نترك أمنا، ولن نتخلى عن الأب، يجب الاطمئنان عليه، هناك مشكلة أكبر من الرواتب ومن تلك الموظفة، لا أحب ذكر اسمها، لن نترك أمنا، انتظروا على الأقل إلى الليل.

الأم ترفع يديها إلى السماء، تدعو الله:

ـــــ يارب، يرجع أبو نديم بالسـلامة، ولو كان تزوج هذه الموظفة التي اسمها نوال.

البنت تضحك وتعلق:

ـ يا أمي، أنت كل ساعة في حالة.

الأم تضيف:

ـــ ليته يرجع، وأنا أعرف كيف أدبر أموري معه ومعها، والله لن أتركه يهنأ بالعيش معها.

بشير يعلق:

ـ لاتخافي، هو ما تزوجها، هو ذهب معها هكذا...

ويشير بيده إشارة تدل على الهرب والحرام.

أم نديم تدق صدرها بيده مدهوشة وتعلق:

ـ أخذها ليزني معها؟ غير معقول.

بشير يعلق ساخراً:

ـــ وهل المعقول عندك زواجه من صبية دون الخامسة والعشرين، وهل الأفضل بالنسبة لك زواجه من بنت سيئة السمعة؟

ترد بعفوية:

ـــــ لأ، لا أريد له الزواج، ولو كانت بنت ناس، ليزن، الله يحرقه بناره، هو وهي.

يقرع الباب، وتسرع الأم إلى فتحه، وإذا ضابط وثلاثة رجال من الشرطة، يسرع عدنان إلى مقابلتهم.

الضابط يريه ورقة في يده، ويسأل:

ـ هذا منزل شهاب الدين؟

ـ نعم.

ـ اسمح لنا، معنا أمر بتفتيش البيت.

ويشير إلى الأم ويقول:

ـ أنت، ولاشك، زوجته.

وتصيح:

ـ نعم، أنا زوجته، والله زوجي غايب عن البيت من يوم الخميس.

ويتكلم الضابط:

ـ أعرف، أريد أن تدليني على صندوقه وخزانته وأوراقه الخاصة.

ـــــ قلت لك زوجي ما رجع إلى البيت من يوم الخميس، وما وضـع في البيت أي شيء من رواتب الموظفين.

ــ أعرف، نحن لن نفتش عن المال، سنفتش عن صور أو رسائل أو أي شيء يتعلق بنوال.

ـ نوال؟

ـــــ نعم، نوال، زوجك سافر معها إلى البحر، ونزل معها في الشيراتون، واليوم صـباحاً دفع الحسـاب وقال لهم زوجتي نائمة لاتوقظوها، دفع في ثلاث ليـال رواتب كل الموظفين، وغـادر الفنـدق، وبعد خروجـه وجدوها في الغرفة مذبوحة.

وتصيح الأم:

ــ ولي، زوجي أنا، تزوج وقتل زوجته، هذا كله في يومين أو ثلاثة، الله لا يوفقك ياشهاب الدين يا كذاب، يا شهاب الكفر، الله يحرقك بنار جهنم.

البنت تعلق متسائلة بدهشة:

ـ هرَّبها معه وذبحها؟ مسكينة، ما ذنبها، مستحيل، أبي لا يفعلها.

الضابط يرد على البنت:

ـ الواقعة ثابتة، وعندنا الصور.

ثم يلتفت إلى الأم ليقول لها:

ـ دليني على خزانته وأوراقه.

تضحك، تعلق:

ـــــ والله لا أصـدق، زوجي يهرب مع صـبية دون الخامسـة والعشـرين، يتزوجها ويقتلها، ادخلوا فتشوا البيت كله، لن تعثروا على صورة لا لنوال ولا منال.

البنت تجهش في البكاء، وهي تكرر:

ـــــ والله لا أصدق، مسكينة، وأبي مجرم؟ رضينا بهربه معها، لكن لماذا يذبحها، ما عدت أفهم، ياربي...

ويرن الهاتف اللاسـلكي الذي يحمله الضـابط، يرفعه إلى أذنه، يتكلم، ثم يلتفت إليهم ليقول للزوجة:

ــ زوجك رمى نفسه من الشاطئ إلى صخور البحر، ونزل على رأسه، رآه كل الناس، وجثته الآن في المشرحة.

ويلتفت إلى الأولاد ليقول لهم:

ـ من الضروري سفر واحد منكم، واضح أنتم أولاده، لإحضار جثته.

منى تنفجر باكية، تلقي برأسها على كتف أخيها بشير، يضمها إليه.

ويدخل صالح مع ابنته وهو يحمل الفرُّوج، يسأل الضابط:

ـ عندك خبر جديد؟

الأم تهتف:

ــ نعم، كل جديد، هات الفروجة حتى نأكل ابتهاجاً وفرحاً، زوجي صار مثل الرجال عن جد، زوجي شــهاب الكفر: ســرق وزنى وقتل ثم انتحر، هات الفروجة هات، وتعالوا غنوا وارقصوا، وكلوا معي، حتى أنت حضرة الضابط، لك مني البشارة.

وتطلق زغرودة طويلة.

ثم تشهق بالدموع، والبكاء يخنقها.

دخلتُ إلى مكتب الشركة، سألت الموظف المسؤول عن الحجز إن كان لديه مقعد شاغر في أقرب رحلة، فأجابني:

ـ أقرب رحلة بعد ساعتين، وسأحجز لك فيها في المقعد الأول.

أجبته:

ـــــ لكني مضطر الآن إلى السفر، ولا يمكن أن أمضي ساعتين في الانتظار، أعرف خطئي، كان الواجب أن أتصل بالهاتف لأحجز، لكن صدقني...وأنا في هذا العمر، أرجو مراعاة ....

وصمتُّ، لا حظتُ أنه يتأملني بنظرة متفحِّصة، وبدا على ملامحه شيء من التردد، فقلت متحمِّساً:

ـــــ الشركة تحتفظ بمقعد أو مقعدين، بحسب علمي، على سبيل الاحتياط لمسافر مهم أو مستعجل، أو عجوز مثلي.

يصمت، ثم يتكلم مبتسماً:

ـــــ عندي مقعد في الصف الأول وراء السائق، لكن إلى جوار راكب متفرِّد، فرنسي، يعرف القليل من العربية، دفع أجرة مقعدين، ولا يريد ركوب أحد إلى جواره، هو زبون المكتب، يسافر كل ثلاثة أشهر مرة، اسمح لي، سأكلمه، ثم أعود إليك.

ويغادر مكانه في مكتب الشركة، أراه يتجه إلى الحافلة، يصعد فيها، وبعد قليل يرجع.

يقول لي:

ـ كلَّمتُه، لكن، أرجوك، لا تكلِّمْه، ولا تتحدثْ إليه، هو فرنسي، كما قلت لك، يعرف القليل من العربية، بصراحة، أدهشني، وافق بسرعة، قلت له راكب عجوز، وأنيق، ونظيف الثياب، ومحترم، ولا تؤاخذني، لا أعرف كيف وافق بسرعة، من عادته ألا يوافق.

*

وأتخذ مكاني في المقعد خلف السائق إلى جواره، وهو إلى جوار النافذة.

هو نحيل مثلي، بل أكثر نحولاً مني، تدلُّ قدماه على طوله، وهو يضع رجلاً فوق رجل، يضع على عينيه نظارة سوداء قاتمة، وجهه صارم، ملامحه قاسية، يرتدي بدلة أنيقة، ربطة العنق معقودة بدقة، الحذاء لامع، وفي يده كتاب، الكتاب مغلف بورق بني قاتم، لا يشف عن شيء.

اتكأت على مسند المقعد، مبتعداً عنه قدر المستطاع، ولم أُلْقِ عليه التحية، وسكنتُ في موضعي، ولم أتحرك، حتى إني حبست أنفاسي، بل إني التفتُّ بوجهي بعيداً عنه.

وانطلقت بنا الحافلة.

لم يفتح الكتاب، ولم يقرأ فيه، ولم يلتفت نحوي.

وأنا لم ألتفت نحوه، كنت أتأمل الطريق، وليس من عادتي أن أحمل معي في سفري كتاباً لأقرأ فيه، فأنا لا أحب القراءة في الحافلة، حياتي كلها قائمة على القراءة، هي حرفتي، لذلك أحب تأمل الطريق في السفر، والاستمتاع بانطلاق الحافلة.

*

وبعد ساعتين، بلغنا مقصفاً، اتجهت إليه الحافلة، ووقفت فيه للاستراحة.

ونهضت من موضعي، تنحَّيْتُ جانباً، وأشرت بيدي للرجل بجواري، أدعوه للنزول قبلي، وتحاشيتُه، وهو يمرُّ أمامي، حاملاً كتابه بيده اليسرى، بدا لي طوله السامق، ولعله يبلغ مئة وثمانين سنتيمتراً أو تسعين، حتى إنه انحنى عند النزول، حتى لا يصيب رأسه، كما تأكد لي نحوله، فلعل وزنه لا يبلغ الستين كيلو، وهو ضامر البطن، في ظهره قليل من الاحديداب، ومن ملامح وجهه قدَّرْتُ أنه في السبعين، أو فوقها بقليل، لكنه محتفظ بقوته ولياقته البدنية.

لم أنزل بعده مباشرة، كان ورائي سيدة، فسحت لها الطريق لتنزل قبلي مع زوجها، ولدَى خروجي من الحافلة وجدتُ الرجل يقف عند الباب ينتظرني، وهو يمسك كتابه بيديه كلتيهما، ويقول لي بعربية فصيحة وبطلاقة:

ـ أرجو قبول ضيافتي، تفضِّل القهوة أم الشاي؟

قلت له، وأنا أخفي دهشتي:

ـ ضيافتك من واجبي، أنا.

فرد بصوت هادئ خافت:

ـ لأ، أنا دعوتك أولاً، وواجبي إكرامك، أنت احترمت صمتي، ولم تتكلم طوال الساعتين الماضيتين.

قلت له:

ـ هذا واجبي، وأقبل ضيافتك.

وسألني وهو ينحني قليلاً:

ـ ماذا تشرب؟

ـــــ القهوة من غير سكر، وإذا سمحت، أقترح شربها هنا في حديقة المقصف، لا في الداخل.

ـ وهذا ما كنت سأقترحه عليك.

ثم أشار إلى منضدة، وقال:

ـ تفضل، أنا سأحضر القهوة، الخدمة ذاتية هنا في هذا المقصف.

وقعدتُ إلى إحدى المناضد، وإذا بالرجل يرجع يحمل بيده اليمنى صينية فيها فنجان قهوة واحد، ويمسك بالأخرى الكتاب، ويسير بتؤدة وأناقة، كأنه نادل متمرس في المقصف.

نهضت، تناولت الصينية، وأنا أسأله:

ـ وأنت؟

رد:

ـ أنا لا أشرب، ولا أتناول أي شيء خارج البيت.

شعرت بحرج شديد، وهممتُ أن أقول له: "وأنا كذلك"، وأنا في الحقيقة لا أشرب أي شيء، ولا أتناول أي طعام إلا من صنع زوجتي في البيت، إلا في حالات استثنائية، ولكن لم أقل له هذا، خشية أن يظن أني أجامله.

وقعدت قبالته، أتنسم عبق القهوة، وأنظر في الزجاج الأسود القاتم لنظارته، وأحاول ألا أطيل التحديق فيه، فقد تأكدت لي ملامح القسوة في وجهه، وبادر هو على الفور إلى القول، وقد وضع الكتاب أمامه على المنضدة، وأرخى راحة يده اليسرى فوقه:

ــ أنا أعيش في دار ريفية قديمة صغيرة في ضواحي حمص، قريبة من أحد البساتين، حفرت فيها بئراً، وعندي جهاز تصفية، أشرب من ماء البئر، وأسقي به الزروع، وعندي مولِّدة صغيرة خاصة، أستمد منها الكهرباء، وعلى

السطح أيضاً صفائح الطاقة الشمسية لتسخين الماء وصفائح لادخار الكهرباء، وفي حديقة الدار أزرع كل أنواع الفواكه والخضر صيفاً وشتاء، ولا أشتري أي شيء من السوق، وعندي بضعة أشجار مثمرة، كالزيتون والتفاح والبرتقال والليمون والمشمش، وهي تكفيني، وعندي عريشة كرمة تغطي مساحة واسعة من حديقة الدار، وعندي حوض لتربية بعض أنواع السمك، مثل المشط والأسود والجري والبوري، أتغذى عليها، أنا لا أتناول اللحوم، عدا السمك، ولا أتناول البيض ولا الحليب، أكتفي بمحصول داري، كما قلت لك: داري صغيرة، فيها ثلاث غرف ومطبخ، غرفة للمكتبة والمطالعة وغرفة للجلوس وغرفة للنوم، أنا أتولَّى كل شيء بنفسي، لا أستعين بخادمة ولا طباخ، داري مثل سفينة نوح، لكن أنا فيها وحدي، ليس فيها من الكائنات الحية غير كناري وحيد في قفص.

ويصمت، يرقبني، فنجان القهوة أمامي، ما أزال أتنسم عبقه، ولم أشرب منه قطرة. ينظر إلي، ويتكلم:

ـ لم تشرب قهوتك؟

كنت في الحقيقة مدهوشاً من فصاحته وطلاقته، فهو لا يلكن، ويلفظ الراء كأنه عربي، لا يلثغ فيها.

أمسك بالفنجان، أرتشف منه رشفة، ثم أقول:

ـ كنت أستمتع بحديثك، هو أشهى من القهوة، أنت تجيد العربية.

يبتسم، ويعلق:

ـ أشكرك، يسرني أكثر ارتشافك القهوة وأنت تستمع إلى حديثي، أنا أقدِّر صمتك.

يصمت، يبتسم، يتكلم بهدوء:

ـ أنا عربي بالولادة، أنا مولود في حلب، سأروي لك فيما بعد بالتفصيل.

وأرفع الفنجان إلى فمي، أرتشف منه، ثم أضعه، وهو يتكلم:

ـ أنا أمضيت في باريس خمس سنوات، درست فيها الطب ثلاث سنوات، ولم أكمل الدراسة، ثم أمضيت فيها سنتين أستمتع بالمسارح والمتاحف وفن البناء والأماكن السياحية والمعالم الحضارية، ثم سافرت إلى السعودية وعملت فيها خمس عشرة سنة، ثم رجعت إلى أوربة، عشت خمس سنوات في فايمار

مدينة غوته في ألمانيا، وتعرفت على موسيقا بيتهوفن وباخ وموتسار، ثم أمضيت ثلاث سنوات في موسكو، قرأت فيها تولستوي وديستوفسكي وتشيخوف، وانتقلت بعدها إلى لندن، أمضيت فيها عامين، درست فيهما علم النفس في جامعة لندن، ثم ارتحلت إلى واشنطن، أمضيت فيها سنة واحدة، لم أطق العيش فيها، وقمت بزيارة إلى روما وأثينا، أمضيت في كل واحدة أكثر من سنة، استمتعت فيها بالآثار والمنحوتات الإغريقية والرومانية، وزرت الفاتيكان، ثم زرت نيودلهي، وبكين، ثم أمضيت أكثر من خمس سنوات في التجوال في العالم، قد تسألني: من أين لك المال؟ وكيف كنت تعيش؟.

ويصمت، ثم يضيف:

ـ قلت لك إني سافرت بعد فرنسة إلى السعودية، عملت خمس عشرة سنة متواصلة في الترجمة لصالح شركة حكومية فرنسية، من غير إجازة، فاحتسبت لي خدمة عشرين سنة، كنت فيها المترجم الفوري والوحيد بين ثلاث لغات الفرنسية والإنكليزية والعربية، ادخرت من المال ما جعلني أعيش تلك الحياة الباذخة، وفي كل بلد كنت أعمل أيضاً بالترجمة الفورية بين الإنكليزية والفرنسية والعربية، وأتعلم لغة ذلك البلد، حتى إني بدأت أجيد الترجمة الفورية في خمس لغات: الروسية والإنكليزية والألمانية والفرنسية والعربية، كنت أترجم في المؤتمرات السياسية والندوات العلمية والاقتصادية، وبالمناسبة أنا أجيد لغة الإسبرانتو، وعضو في المجمع العالمي لهذه اللغة التي نطمح في هذا المجمع إلى أن تسود العالم كله، نسيت أن أذكر لك، أنا غادرت البلد بعد نيلي الشهادة الثانوية، وكان عمري ثمانية عشر عاماً، ولم أعد إليها إلا بعد أن بلغت الستين، أي أني أمضيت أكثر من أربعين سنة في الغربة، لم أزر فيها الوطن، أنا الولد الوحيد لكل من أبي وأمي، وسأحدثك عنهما، بعد قليل.

وينظر في فنجاني، فأرفعه إلى فمي وآخذ منه رشفة، فيتابع:

ـــ أنا لم أزر أي بلد من البلاد العربية، وفي السعودية لم أحج، مع أن الشركة الفرنسية نفسها عرضت علي أكثر من مرة أداء فريضة الحج على نفقتها مع تقديم كافة التسهيلات، باعتباري مسلماً، وقد منحتني الحكومة الفرنسية الجنسية الفرنسية، لقاء خدماتي، على كل حال، أنا أؤمن بالله، وقرأت عن الإسلام والمسيحية واليهودية والبوذية، وقرأت التوراة والإنجيل، بل

درستهما، وقرأت القرآن، وعندي عدة تسجيلات لكبار القراء، أصغي إلى التلاوة، وأستمتع بها، أنا مؤمن كما قلت لك، لكن لا أمارس الطقوس الدينية، أنا أصغي بكل جوانحي إلى موسيقا جار ميشيل جار، أو يان، فأحس أني حلّقت في السماوات، حللت في الكون، أحس أن لي جناحين أطير بهما في الفضاء، سأحكي لك، عشت قصة حب رائعة في فايمار، مع فتاة ألمانية تدين بالمسيحية، وتتمسك بالدين، أبت إلا أن يكون بيننا عقد زواج، ثم طلقتها، ولي هناك منها ولد، لم أعد أعرف عنه أي شيء، تركته وعمره أقل من سنة، حتى الآن لا أعرف عنه أي شيء، ولا أفكر في السؤال عنه، ما الفائدة من المعرفة؟

مرة أخرى ينظر في الفنجان، فأرفعه إلى فمي، وأحسو منه حسوة، فيتكلم:

ـ أنا أزوّد الجيران من حولي بالماء والكهرباء، وأوزع على أولادهم في المناسبات كلها الهدايا، أنا لا أومن بما يسمى أسرة، أولاد العالم كلهم أولادي، وأود لو أطعمهم حبات قلبي، كتبت في وصيتي: داري بعد وفاتي تصبح روضة للأطفال، طبعاً في أثناء تجوالي في العالم أقمت علاقات كثيرة مع نساء كثيرات، لكن وأنا هنا في الوطن، وأنا في الستين، تعرفت على صبية في الثلاثين، أحببتها، وأحبتني، عاشت معي ثلاث سنوات، طلبتْ مني الزواج، فاعتذرت، طلبت مني أن آذن لها بأن تحمل مني، أكدت رغبتها في الإنجاب، فقطعتُ علاقتي بها، وسمحت لها أن تتزوج، وأعطيتها مبلغاً أكبر مما يعطيه الزوج لزوجته إذا طلقها، وهي ما تزال إلى اليوم تزورني مع ولد لها، تقول له: "هذا خالك"، وأنا أعطيه الهدايا، ولا أقيم معها أي علاقة، أنا كنت لا أقيم أي علاقة مع امرأة متزوجة، حتى في كل بلاد العالم التي زرتها وعشت فيها، احتراماً مني للمرأة المتزوجة ولزوجها، تعرفت بعدها على صبية في الثلاثين أيضاً، لم تكن مثل الأولى، استمرت العلاقة معها سنتين، ثم رغبت هي في الزواج، فقدمت لها ما هو أكثر مما يُسمَّى المهر، ثم غابت، ولا أعرف عنها حتى الآن أي شيء، ثم بعد سنة أو أكثر، تعرفت على صبية ثالثة، كانت في الثلاثين، أيضاً، ومطلقة، وأنا كنت قد بلغت الخامسة والستين، وعاشت معي خمس سنين، قالت: "آن لي أن أتزوج، فإما أن تتزوجني أو تتركني"، قالت: "أريد الولد، أريد أن أصبح أماً"، أعطيتها فوق ما أعطيت السابقتين، أعطيتها

أكثر مما يمكن أن ترث البنت من أبيها أو المرأة من زوجها، أنا لا أومن بالميراث، أنا أومن بالهبة والعطاء، بعد سنة زارتني، وقد أنجبت ولداً، عرضت عليَّ أن تعيش معي، ومن غير عقد زواج، وتطلق زوجها، قالت: "أريد لولدي أن ينشأ في رعايتك، أريد أن أعيش معك، سأطلق زوجي"، لكني اعتذرت إليها، آخر امرأة تعرفت عليها قبل سنة، وقد بلغت السبعين، سيدة مطلقة في الخامسة والأربعين، نشأت بيننا صداقة استمرت أقل من سنة، لم أقم معها أي علاقة، عرضتْ عليَّ الزواج، لكني اعتذرتُ، وبعدها قطعتُ علاقتي مع النساء، لأني تجاوزت السبعين، يكفي أني عشت عشر سنوات مع ثلاث صبايا كلهن كن في الثلاثين، هي عشر سنوات من أجمل سنوات عمري، إذا كنت قد أمضيت أربعين سنة في رحلات خارجية، فأنا معهن أمضيت عشر سنوات من الرحلة الداخلية، أريد بعد ذلك بصراحة المحافظة على لياقتي، طبعاً أنا الآن كما قلت لك تجاوزت السبعين، ولا أشكو من أي مرض.

ويصمت ثم يضيف:

ـــ أود أن أقول لك، كل الصبايا اللواتي تعرفت عليهن جميعاً مثقفات، جامعيات، ومعلمات، أو موظفات، ولسن من طبقة فقيرة، ولم تكن علاقتهن معي عن حاجة أو فقر أو طمع في مال، لم يكنَّ بحاجة مادية إلي، كنت أعرف كيف أنتقي، ولا أنسى المرأة الرابعة، كنت ألتقيها في المطاعم والمقاصف، أحياناً في مطعم ديك الجن، وأحياناً في مطعم نقابة المهندسين، أو في المطاعم المنتشرة على العاصي، هي بصراحة مهندسة، وعندها سيارة، قلت لك: لم أقم معها أي علاقة، كانت علاقة حب رومنسية، استمرت أقل من سنة، كانت تسعى هي إلى الزواج، اعذرني أحياناً أكرر الفكرة، أحب أن أتذكر، وأستمتع حين أروي لك.

وأنظر في ساعة يدي، فيقول:

ـــ اهنأ بقهوتك، ما يزال أمامنا خمس دقائق، سأصمت دقيقتين، أحب الصمت.

يستند بكوعيه على المنضدة، والكتاب بينهما، يشبك أصابع يديه، يضعهما تحت ذقنه، يغمض عينيه، ويغرق في الصمت، يمضي الوقت، أحس كأنه نام.

أتفرس في الورق البني القاتم الذي غلف به الكتاب، أحاول أن أستشف من تحت الورق البني العنوان، فلا أفلح، يبدو الكتاب قديماً، لعل عدد ورقه يزيد عن الأربعمئة.

يفتح عينيه، يلتقط الكتاب، ينظر في ساعة يده، يتكلَّم:

ـ هذا الصمت الذي استغرق دقيقتين تجددتْ فيه كل خلاياي، واستحوذتْ في هذا الصمت على طاقة كونية، تعادل أربع سنوات من العمر، هكذا أجدِّد طاقتي، صدقني أنا لا أفتعل هذا، ولا أصطنعه، هناك هاتف في داخلي، يتصل بالكون كله، ينبهني، على غير إرادة مني، يقول لي: "عليك شحن طاقتك".

ويصمت، ثم يضيف:

ـــ أمامنا ثلاث دقائق قبل انطلاق الحافلة، سأحدثك عن أمور أقل أهمية، أنا عرفت المذاهب السياسية كلها والأحزاب، كما قلت لك، أنا عشت في موسكو وفي واشنطن، وقرأت التاريخ، ورأيت الشرق والغرب، ملت قليلاً نحو الاشتراكية، ولكن لم أومن بها، رأيت فشلها في التطبيق، أتمنى أن يصل العالم إلى نظرية سياسية جديدة غير كل ما هو موجود من نظريات، ولا بد من أن يصل إلى هذه النظرية التي ستعم العالم، كما أن لغة الإسبرانتو ستعم العالم.

ويصمت، ثم يضيف:

ـــ سأذكر لك موقفاً لا أنساه، رجعت مرة من المدرسة، وأنا في العاشرة من العمر، باب الشقة مغلق، قرعت الجرس، وقرعت، وقرعت، ولا أحد، تخيَّلت والديَّ الاثنين وقد ماتا في الداخل، تخيلت أنهما خرجا في زيارة وضربتهما سيارة، تخيلت أنهما سافرا ونسياني، وكان المعلم في المدرسة قبل يومين قد حدثنا عن نوح والطوفان، أحسست فوراً أني مثل نوح، الكون كله غرق، وبقيت أنا وحدي، وحقيقة، كما قلت لك، أحس الآن بداري الصغيرة كأنها سفينة نوح، يبدو لي حلمي قد تحقق.

وننهض، نمضي إلى الحافلة، وقبل أن نصعد، يقف ليقول:

ـــ أنا لا أزور، ولا أزار، ولا أحب التعرف على أي إنسان، ولا أسمح لأحد بالتعرف علي، أنا لا أتكلم، ولا أسمح لأحد بالقعود إلى جواري، كل ثلاثة أشهر عندي سفرة، لكن رأيتك من نافذة الحافلة، مظهرك أنيق، ربطة عنقك منسجمة مع البدلة والقميص، حتى الحذاء جديد ولامع، والشعر مسرح، رأيت

فيك ذاتي، كأنك مرآتي، وأنا الآن أنظر إليك، أرى أنك توءمي، وعندما حدثني عنك الموظف الذي في المكتب، وأشـــار إليك، وافقت فوراً ومن غير تردُّد، الشكل عندي هو كل شيء، المظهر يدل على الجوهر، الجوهر وحده لا يكفي، وصـــمتك هو الذي دفعني إلى الكلام، لم تتطفل، ولم تســألني، ولم تتكلم، أقدر صمتك، فالصمت هو الحياة، صدقني.

وأدعوه إلى الصعود قبلي، فيصرّ على أن أصعد قبله، ثم يصر على أن أقعد في مكانـه من المقعد إلى جوار النـافذة، ويقعد هو إلى جواري، وتنطلق الحافلة، وهو ما يزال يمسك بـالكتاب.

ويسيطر الصمت مرة أخرى.

*

بعد نصـــف ســـاعة تدخل الحافلة إلى مدينة حمص، يرجو الســـائق من ركاب المدينة أن ينزلوا، كما يرجو من باقي الركاب ألا ينزل أحد. تمر بضـــع دقائق ينزل فيها بعض الركاب. لكن جاري لا ينزل.

بعد دقيقة، يلتفت نحوي ويتكلم هامساً كمن يتابع حديثاً انقطع:

ـــ نسيت، سأحكي لك، قلت لك: أنا كل ثلاثة أشهر عندي سفرة، أراجع فيها السـفارة الفرنسـية، أقبض فيها راتبي التقاعدي، لأنني كنت في السـعودية أعمل في الترجمة لصـالح شـركة حكومية فرنسـية، أظن أني حدثتك عن هذا، سـامحني، لكن نسيت أن أخبرك، أيضـاً، أنا في الأصل من حلب، لكني قررت الســـكن في حمص، لأن جوها هادئ، ولا أعرف أحداً فيها، ولا أحد يعرفني، مر أكثر من عشر سنوات وأنا هنا في حمص، لم أتعرف على أحد، ولم أسمح لأحد بالتعرف عليّ، الجيران يعرفون أني فرنســي، أنا أتكلم الفرنســية، ومعي جنسية فرنسية.

ويصمت، يرسل زفرة، كمن يحس بالضيق، ثم يتكلم:

ـ أنا غادرت حلب وعمري ثماني عشرة سنة، كان أبي قد توفي وأنا في الرابعـة عشـــرة من عمري، أمي كمـا حكـت هي لي، حملـت بعـدي مرتين، وأجهضـت، ونصـح لها الأطباء ألا تحمل، لذلك أنا الولد الوحيد، سـألتها مرة: لماذا أنا وحيد؟، فحكت لي عن ذلك، والسبب، كما قال لها الأطباء: هو زواجها المبكر، فقد تزوجها أبي، كما قالت لي وهي دون السابعة عشرة، غادرتُ حلب

وهي غير راضية عن سفري، علمت فيما بعد أنها تزوجت بعد سفري بسنة، وكان عمرها فيما أقدر حوالي سبع وثلاثين سنة، وحملت، على الرغم من تحذير الأطباء، وهي في المخاض توفيت، وضعت ولداً، وأنا في فرنسة وعمري في نحو العشرين، وهذا يعني أن لي أخاً، يصغرني على الأقل بعشرين سنة، أي يجب أن يكون الآن قد تجاوز الخمسين، مثلما تجاوزت أنا السبعين، هذا كل ما عرفته عن الولد، أقصد أخي، ولم أعرف عنه بعد ذلك وحتى الآن أي شيء، وبصراحة، لا يهمني أن أعرف، ولا سيما بعد انتقالي إلى حمص، وبالطبع هو لم يسأل عني، ولا يعرفني، ومرة أخرى، ما فائدة المعرفة؟

يصمت، يرسل زفرة، ثم يتكلم:

ـــــ ولذلك انتقلت إلى حمص، ليس لي أحد في حلب، أردت أن أحقق وجودي بمعزل عن أي موروث عائلي، أحس بنفور من كل ما يسمى أقارب، أو أهل، أو أسرة، وهذه أول مرة أبوح بها لشخص بهذا.

وينهض فجأة، وبشيء من التوتر، وهو يحتضن الكتاب إلى صدره، يتجه نحو الباب، يلتفت إليَّ، يشير مودعاً، ويمضي.

*

يبدأ ركاب جدد بالصعود، ينظر كل منهم في رقم مقعده في البطاقة التي في يده، ثم يمضي إلى مقعده.

على الأرض أمام باب الحافلة يقف رجل بدين، يرتدي سترة جلدية سوداء، يحمل بيد كيساً ورقياً مملوءاً، وبيد الأخرى يضع السيكارة في فمه، وينفث دخانها سريعاً مرات متتابعة، يريد أن يودِّع التدخين قبل الصعود في الحافلة.

لم يبق أحد غيره، أمد نظري نحو رصيف الانتظار، لعلي أرى جاري يقف ليودِّعني، ولكن لا أرى له أي أثر.

السائق يقترب من باب الحافلة، يدعو الرجل البدين إلى الصعود، الرجل البدين يمتص الدخان من سيكارته بعمق، ثم ينفثه، ويرمي بقية السيكارة، ويصعد في الحافلة، رأسه مدوّر، وجهه ممتلئ، شارباه كثيفان، أنفه مفلطح، شفتاه غليظتان، في نحو الخمسين من العمر، هو أقرب إلى القصر، كأنه كرة

كبيرة، يقترب من مقعدي، ويتخذ مكانه إلى جواري، يلتصق كتفه بكتفي، يلتفت نحوي ويتكلم بصوت أجش وهو يضحك:

ـــ أنا محظوظ، أنت نحيل وأنا بدين، تصوّر لو كان كل واحد منا مثلي أنا، لا تؤاخذني، صدقني لن أضايقك.

وتنطلق الحافلة، يمد يده في الكيس، يخرج كيس رقائق بطاطا، يقدمه لي، وهو يقول:

ـــ تفضل هذا كيس رقائق البطاطا، قرمش حتى تتسلى، وأنا قادم في الصباح إلى حمص ضجرت مللت، زهقت روحي، لم أستطع تحمل ساعتين من القعود بصمت ومن غير سيكارة ومن غير أي شيء أتسلى به، جاري الذي كان إلى جواري صامت، ما نطق بكلمة، ولم يرد أن أكلمه، لذلك حسبت حسابي للعودة، اشتريت أكياس المكسرات ورقائق البطاطا حتى أتسلى بها، وقلت سأحدث جاري في المقعد، مهما كلف الأمر، لا يمكن تحمل ساعتين من السفر في صمت، المشكلة، لا يسمح لنا بالتدخين في الحافلة أثناء السفر، تفضل.

تغمرني رائحة التبغ، سترته الجلدية مشبعة برائحة التبغ، يحرك يديه، يصدر احتكاك جلد السترة بعضه ببعض صوت زقزقة مزعجة، ويفتح كيس رقائق البطاطا، فتح الكيس يحدث ضوضاء، وتزداد الضوضاء حين يمد أصابعه الثخينة الممتلئة داخل الكيس ليلتقط رقائق البطاطا، ويأخذ في رمي الرقائق في فمه، وهو يقرمش، وأكاد أسمع صوت القرمشة تحت أسنانه، وهو يلتفت نحوي ويتكلم، يغمرني بأنفاسه العبقة برائحة التبغ، وهو يقول:

ـــ أنا سأعرفك بنفسي، أنا أبو أحمد، صاحب أكبر مطعم في حلب، رزقني الله بزوجة تساوي عندي كل نساء الأرض جميعاً، هي الزوجة والأم والعشيقة، عوضتني حتى عن أمي، رزقني الله منها تسعة أولاد: خمسة ذكور، وأربع بنات، قلبي طيب، ونيتي صافية، لا أؤذي أحداً، ولا أغش، لكن لا أصلي، أنوي أداء فريضة الحج العام القادم إن شاء الله، وسأصلي بعدها دائماً، أنا تركت المدرسة، وما تابعت دراستي، لكن حرصت على تعليم أولادي، أولادي كلهم مثقفون، الأول مهندس والثاني طبيب والثالث صيدلي والرابع طالب في كلية الحقوق سنة ثالثة، والبنات الثلاث مدرسات، الأولى مدرسة

علوم والثانية مدرسة رياضيات والثالثة سنة رابعة في قسم اللغة الإنكليزية، والأخيرة في السنة الأولى في كلية الطب، ولد واحد فقط يعمل معي في المطعم، ما أفلح في الدراسة، وهذه هي رغبته، العمل في المطعم، زوجتهم كلهم، زوجتهم على حسابي، صرفت عليهم، بقيت البنت الأخيرة، طبعاً لن تتزوج حتى تتخرج طبيبة، الحمد لله، أنا تزوجت باكراً، كان عمري دون العشرين، لذلك كبر الأولاد معي، وكبرت معهم، كل يوم جمعة يجتمع الأولاد عندي، لا أتحمل بُعْد واحد منهم عني.

يعود إلى القرمشة، يلتفت ليتكلم:

ـــ لم تسألني عن سبب زيارتي لحمص في الصباح، وعودتي منها عصراً، أنا سأخبرك، منذ عشر سنوات تقريباً، كل أربعة أشهر أو خمسة، أقوم بهذه الزيارة إلى حمص، أعتبرها نزهة، أتناول الغداء عند صديق لي صاحب مطعم، مثلي، وأسأل هنا وهناك، ثم أرجع بالخيبة، ولا أستفيد شيئاً، أجيء إلى هنا في الصباح، وأرجع عصراً، أسأل عن إنسان، ولا أحصل على إجابة مفيدة.

يلقي في حلقه رقائق البطاطا، يقرمش، ثم يضيف:

ـ سأحكي لك عن حياتي، قد تستغرب، والدي كان متزوجاً لكنه لم يرزق بولد، أكثر من عشر سنين، ولم يرزق بولد، وكان سعيداً في حياته، ولم يكن يفكر في الزواج، وقد بلغ الأربعين، لكن فجأة خطر له أن يتزوج، فتزوج امرأة أرملة، هكذا حكى لي أبي، هذه المرأة حملت بي، لكنها توفيت وهي في الوضع، فربتني زوجته الأولى التي لم يرزق منها بولد، ثم ماتت وأنا في العاشرة، وكانت لي بمنزلة الأم، وحكت لي أن أمي، التي حملت بي وماتت وهي في الوضع، كانت قد أنجبت من زوج سابق ولداً، ثم هاجر وكان عمره حوالي عشرين سنة أو أقل، ثم تزوجت من أبي بعد سفر ابنها بسنة، وحملت بي، وتوفيت وهي تضعني، كما قلت لك، وهذا يعني أن لي أخاً هو الآن أكبر مني بعشرين سنة على الأقل، أنا الآن في الخمسين، يجب أن يكون هو الآن في السبعين، وقد علمت أنه رجع إلى حلب قبل عشر سنوات، قعد فيها أقل من سنة، ثم انتقل إلى حمص، كم أتمنى لو أتعرف عليه، حقاً عندي تسعة أولاد، ولكن أشتهي لقاء أخي والتعرف عليه، يسألني أولادي: هل لك أخ؟ أخجل، لا

أعرف ماذا أقول لهم، لذلك آتي إلى حمص بين حين وآخر للنزهة وللسؤال عنه، ليس لي عنده أي غرض، لا ميراث، ولا حاجة، ولا أي شيء، لست بحاجة إليه، فقط أريد رؤيته، سأبذل كل جهدي، لا بد أن ألتقي به ذات يوم.

يلتفت إلي، يمد إلي يده بكيس من المكسرات، وهو يقول:

ـــ فور وصولنا بالسلامة لن أتركك تذهب إلى البيت، ستذهب معي إلى المطعم، نتعشى ونسهر، ستأكل عندي أطيب أنواع اللحوم المشوية، وسأزودك بعشاء تحمله معك للأسرة.

أقول له:

ـــ أنا سآخذ حافلة ثانية إلى الحسكة في أقصى الشمال الشرقي، أمامي خمس ساعات أخرى من السفر.

الرجل يلتفت إليَّ، وهو يقول:

ـــــ هذا يؤكد ضرورة دعوتي لك، نتناول العشاء، ونسهر، ثم تنام، وتستريح، لا يمكن مواصلة السفر، تسافر غداً في الصباح وأنت مرتاح.

أؤكد له اعتذاري، فيلح قائلاً:

ـــ لا تتركني أرجع إلى حلب خائباً، دعني أشعر أني فزت بالعثور على أخي، امنحني سعادة العثور عليك، دعني أعتبرك مثل أخي، لتكن أنت أخي.

يناولني كيساً من المكسرات، وهو يقول:

ـ تفضل، حتى تتسلى، لكن، أرجوك تكلم، حدثني، لا أحب الصمت، إذا لم تتكلم، أنا سأظل أتكلم، الموت عندي أهون من الصمت.

*

هل أخبره بأن الرجل الذي يبحث عنه كان إلى جواري هنا في المقعد نفسه؟ وأنه طوال الساعتين الماضيتين في الطريق من دمشق إلى حمص قد حكى لي كل شيء عن حياته، وأنه نزل هنا في حمص قبل بضع دقائق فقط، وأنه يقعد هنا في المكان نفسه الذي كان يقعد فيه، وأنني أعرف عنه كل شيء، هل أخبره بهذا كله؟

وإذا أخبرته بكل ما عرفت عنه، هل سيستطيع الاهتداء إليه؟ أم هل سأكون قد زدت من معاناته؟ وقد لا يكون هو الرجل المطلوب.

هل ألوذ بالصمت؟

تقول له زوجته:
ـ اتصل بك نجدة مرتين.
يغمغم:
ـ وماذا يريد؟
ـ لم يقل.
*

بعد سنتين يتصل بك أصغر موظف في المديرية، مسؤول الحسابات والجداول، طبعاً لن يتصل بك أحد سواه، هل تتوقع أن يتصل بك المدير ليسأل عنك، أو المدير العام، أو هيام خانم التي كانت تزورك كل يوم لتشرب عندك القهوة، أو زميلتها سنية، وأنت تناول كل واحدة منهما سيكارة من علبتك، لتدخنا في غرفتك، هيام خانم سكرتيرة المدير، وهو لا يسمح لها بالتدخين في مكتبها المفتوح بابه على مكتبه، وسنية المهندسة لا يمكنها أن تدخن في المقسم، وإلا أفسدت مقاسم الهاتف الحديثة. وماذا يريد منك نجدة بك؟ يا للسخرية، أنت دربته على أصول المحاسبة، والتدقيق في السجلات والجداول، وبعد إحالتك على التقاعد يحلّ محلك في العمل، ثم لا يتصل بك، ولا يسأل عنك، حتى السجلات التي بين يديه الآن هي ما تزال سجلاتك، والخط فيها خطك، طلب منك أن تترك له للذكرى قلم الحبر الخاص بك، الذي لم تغيره طوال خمس وثلاثين سنة من عملك في المحاسبة، كنت تنوي ألا تتركه له، كنت تريد الاحتفاظ به للذكرى، ولكنك تركته له عن طيب خاطر، ويمر عامان، ولا يتصل، ولماذا يتصل اليوم؟
*

ويكرر السؤال لزوجته:
ـ ماذا قال لك؟
ـــ لم يقل أي شيء، اتصلْ به أنت، الساعة الآن الثانية والربع، لم ينصرف.

يأخذ رشفة من فنجان القهوة، يفتح عينيه، يشد جفنيه، ويعلق:

ــ إذا كان عنده أي شيء يريد قوله، فسيعاود الاتصال، اتركيني، لا أريد الاتصال بأحد.

*

حين يبدأ نور الفجر بالتسرب إلى عينيه المتعبتين، ينهض، يغلق الستائر، يطفئ السيكارة في صحن امتلأ ببقايا السكائر، يصب آخر ما تبقى في دلة القهوة، يرشقه في حلقه، ويمضي إلى السرير، يلقي جسده المتهالك فيه، ويغرق في النوم، ولا يستيقظ إلا بعد الثانية بعد الظهر، يغط في نوم عميق، إلى جوار التلفاز وهو يبث فيلماً قديماً من أفلام أيام زمان، ينام على صوت الفيلم بكل ما فيه من حوار أو أغنيات أو أصوات، لا يوقظه رنين الهاتف، ولا قرع جرس الباب، ولا جر أسطوانة الغاز على الأرض.

زوجته طبعاً تنام في غرفة ثانية مع بناتها الثلاث، وفي غرفة أخرى ينام ابنه صدقي، لم يبق عنده سوى ثلاث بنات، لينا الصغرى، في السنة الأولى في كلية الآداب، قسم اللغة العربية، ويمنى في السنة الرابعة في كلية العلوم، وعلياء المتخرجة في كلية الحقوق، وهي تعمل متدربة عند أحد المحامين، وستمارس المهنة بعد سنتين، صدقي ولده الوحيد يعيد التحضير هذه السنة لامتحان الشهادة الثانوية، في الفرع الأدبي، لم ينجح في العام الماضي، تمنى لو درس أحد من أولاده الاقتصاد مثله، ليعمل في المحاسبة.

هو وحده المعيل للأسرة، زوجته بهيرة ربة بيت، تقدمت مرتين إلى امتحان الشهادة الثانوية، ولم تنجح، وما من خطيب يتقدم إلى بناته، هن لسن فائقات الجمال، لكنهن على قدر مقبول من الرشاقة والحسن، وما هو بالرجل المشهور في المجتمع، ولكنه نظيف القلب واليد واللسان، لم يسرق قرشاً طوال عمله خمساً وثلاثين سنة في المحاسبة، ما تكلم على أحد بسوء، وطوال حياته لم يعرف امرأة غير زوجته، الموظفات في المؤسسة جميعاً يعرفن استقامته، ولذلك كن يمازحنه وهن آمنات مطمئنات.

ولم يستطع ادخار أي ليرة، وطوال عمره لم يغادر مدينته الصغيرة. أعلنت الوزراة غير مرة عن إقامة دورات محاسبة متطورة في العاصمة،

وكان المدير يرشحه لها، ولكن ما من مرة جرى قبوله، دائماً يكون اسمه في قائمة الاحتياط.

ومنذ عامين، منذ إحالته على التقاعد، هذا هو برنامجه اليومي، ينام مع خيوط الفجر الأولى، في السادسة صباحاً، ويستيقظ في الثانية أو الثانية والنصف بعد الظهيرة، ينام في وقت دوامه السابق في المديرية، ويستيقظ في الثانية، يحار، لا يعرف ماذا يفعل. تعد له زوجته دلة قهوة جديدة، ويفض هو علبة سكائر جديدة، ويشرع في التدخين. في الرابعة أو في الخامسة، بعد استيقاظه بثلاث ساعات، وبعد تدخين نصف علبة سكائر، تعدُّ له زوجته طعام الإفطار، إفطاره هو هو، لا يتغير، بيضة مسلوقة، وبضع حبات من الزيتون الأخضر، ونصف رغيف من الخبز، وكأس شاي. ثم يعود إلى القهوة والسيكارة. التلفاز تسليته الوحيدة. لا يتابع سوى قناة الأفلام المصرية القديمة. كل ما عداها عنده تافه، لا أخبار ولا سياسة ولا أغنيات ولا موسيقى ولا أفلام أجنبية. أفلام أيام زمان هي الأفلام الجديرة بالمشاهدة؛ عفوية في التصوير، وارتجال في التمثيل، وأغنيات صادقة، وقصص واقعية، ذات عظة وعبرة، أما ما عدا ذلك فكله سخيف وتافه.

تقول له زوجته:

ـ والله أنا مللت من الفرجة على هذه الأفلام.

يرد:

ـــ أنا لا أتفرج عليها، أنا أعيش فيها، في داخلها، أعيش البطولة مع فاتن حمامة، مع فريد شوقي، مع عماد حمدي، أيام الشباب كنت أحلم بالسفر إلى مصر، والعمل في التمثيل، الآن أحقق حلمي، لا تحرميني من تحقيق حلمي.

ـ لكن

ـــــ أعرف، هذا جنون، مرض، مراهقة جديدة، وما المانع، العالم كله جنون، هل الفرجة على أفلام الأكشن أفضل؟ أو أفلام الخيال العلمي؟ أو متابعة الأخبار؟ هل أتابع أخبار الحروب وتلوث البيئة وانهيار الاقتصاد وغزو الفضاء وانتشار الإيدز؟ هل أتابع مباراة كأس العالم لتفوز في النهاية البرازيل بكأس العالم وأخسر أنا الشهادة الثانوية؟ مثل ابنك صدقي بك؟ قولي لي ما هو الأفضل؟ أرجوك، اتركيني في حالي.

عند الحادية عشرة ليلاً أو الثانية عشرة، يتناول ما طهته زوجته للأولاد من طعام الغداء، وأياً ما كان الطعام فهو طيب ومقبول، ليس عنده طعام مفضل.

وتبدأ السهرة عنده في الثانية عشرة، ويفض علبة سكائر جديدة.

ـ اتركوني في حالي، أنا مرتاح، والله، أنا راض ومرتاح.

ما عاد يزور أحداً، لا إخوته ولا أخواته، وليس عنده مقهى ولا صديق. السعال لا يفارقه، وينصح له الأولاد بمراجعة الطبيب والإقلاع عن التدخين، فيرد:

ـــ وأنا نصحت لكم من قبل، ادخلوا إلى الفرع العلمي، تتخرج الواحدة طبيبة مهندسة صيدلية تساعد والدها يأتيها زوج محترم، والآن، لا ينصحني أحد منكم، اتركوني، هذه هي حياتي.

حتى راتبه التقاعدي لا يقبضه بنفسه، أجرى وكالة خاصة لابنه صدقي، وهو يقبض عنه، لا يريد الذهاب إلى المؤسسة التي كان يعمل فيها لقبض الراتب، ولا يريد رؤية المؤسسة ولا الموظفين ولا حتى المبنى بعد أن غادره، وكم آلمه تغيير اسمها بعد تقاعده من مديرية البريد والبرق والهاتف إلى مؤسسة الاتصالات السلكية واللاسلكية، أي اتصالات هذه وأي مؤسسة؟ وما الفرق؟ إن هي إلا أسماء سميتموها، لم يتغير شيء، وكيف سيمد يده إلى المحاسب نجدة بك ليقبض منه راتبه التقاعدي وهو الذي كان يقبِّضه راتبه، وهو الذي علمه أصول المحاسبة والتدقيق وضبط السجلات؟

*

وتدخل عليه ذات يوم زوجته لتقول له بهدوء، وهي تقدم له دلة القهوة:

ـ مرات كثيرة قلت لك، يا أبو صدقي، اذهب إلى الجامع، هو لصق بيتنا، والله كنت وجدت الراحة والطمأنينة، وأنت ما سمعت كلامي.

يقاطعها:

ـــ أنتِ صلِّي، واتركيني، ولا تقولي لي مرة ثانية اذهب إلى الجامع، أنا أعرف ربي، والعلاقة بين العبد وربه أمر خاص، لا يحق لأحد التدخل فيه.

ـــــ والآن أقول لك، ابحث عن مقهى تقعد فيه، أو حديقة، ترى الناس وتتسلى معهم وتسمع قصصهم.

ويرد عليها:

ــــ يا بهيرة، الله يرضــى عليك اســمعي، يا زوجتي، يا أم صــدقي، أنا أمضيت كل عمري ، أكثر من خمس وثلاثين سنة في غرفة أصغر من غرفتي هذه، وأنـا محبوس بين الدفـاتر والســجلات والأرقـام، وكـل يوم أرى النـاس وأعطيهم رواتبهم واسـتحقاقتهم، وبعد هذا في النهاية لما تقاعدت ما سـأل عني أحد ولو بـالهاتف، ما فائدة المقهى والحديقة، المقهى للعجائز والقعدة، والحديقة للشــباب المـائعين، أنـا هنـا عـالمي، هذه حيـاتي، أنـا كنـت أنتظر إحالتي على التقـاعد، حتى أعيش هـذه الحيـاة، أرجوك، لا تلحي علي، أنـا إذا خرجـت من حياتي هذه فسوف أموت مثل السمك إذا خرج من الماء، اتركيني، أنا مستريح، أنا بألف خير، اتـركيني لأمضي ما تبقى لي من عمر، هنا في مملكتي.

تصمت، تقول له:

ــــــ مـا دامت هذه حيـاتك وأنت مرتـاح، وعد مني، ما عدت أكلمك في الموضوع.

وتتركه وتخرج.

ولكن في يوم آخر تضيق بها الأحوال، فتدخل عليه لتفجأه بقولها:

ـ أنت دفنت نفسك على الحياة.

ينفث دخان سيكارته، ويعلق:

ـــ والله لا أحد منكم يعرف ما أنا فيه، أنا أعيش الحياة، ما أعيش فيه هو الحياة الحق، ولكن لا أريد أن تجربوه، عيشوا أنتم حياتكم.

ويصمت، ثم يضيف:

ـ بهيرة، أقول لك، اتركيني، عيشي حياتك، زوري كل يوم أمك وأخواتك والجيران، عيشي مع ابنك وبناتك، اذهبي إلى سجادتك وصلي، وإلى مصحفك واقرئي، هل تدخلت أنا في يوم من الأيام في حياتك؟ هل قلت لك لا تصـلي أو لا تقرئي في القرآن؟ أنا هذه حياتي، أرجوك، اتركيني لأعيش كما أريد.

وتعلق:

ـ أي حياة يا أبو صدقي، راتبك التقاعدي لا يكفينا عشرة أيام.

يغلق عينيه، ويتكلم:

ـــ يا أم صدقي، يا بهيرة، والله لو أستطيع عمل أي شي لما قصرت، ما عندي رأسمال لأشتغل بالتجارة، ولا عندي دكان، ولا عندي خبرة بأي مهنة، هل أقعد عند الحلاق وأنا في هذا العمر لأتعلم منه الحلاقة؟ ولا عندي شـــهادة قيادة سيارة، لو عندي كنت عملت سائق سيارة أجرة، والدي ما ترك لي قطعة أرض ولا عمارة، هذه الشقة اشتريتها بالتقسيط من البنك، وقبل خمس سنين انتهينا من الأقساط والفوائد، وأنا الآن عمري فوق الستين، صار اثنتين وستين، ماذا أعمل؟

تربت على كتفه، تخرج، والدموع تملأ عينيها.

*

ويرن جرس الهاتف.

وتدخل عليه زوجته تقول له:

ـ زميلك نجدة على الخط.

يرد:

ـ قولي له: ماذا يريد؟

وتعلق:

ـ الرجل يريد الكلام معك.

وينهض، يمضي إلى غرفة الجلوس حيث الهاتف، يلقي بجسده في مقعد عريض، ينفث دخان السيكارة، ويسعل، يرحب بالرجل، ثم يصغي إلى حديثه.

ويضـــع الســـماعة، ويظل في مقعده، كأنه لا يريد النهوض والعودة إلى حجرته.

تسأله زوجته:

ـ ماذا قال لك نجدة؟

يضحك بهدوء، يقول لها:

ـ قومي هاتي علبة السكائر والقداحة، حتى أحكي لك.

وترجع، تناوله علبة السكائر، يشعل سيكارته، يفتح عينيه، يحدق فيها، ويضحك ساخراً، وهو يقلب كفيه، ثم يسألها:

ـــ بهيرة، هل أنا في هذه السن مناسب للعمل؟ وهل هيئتي مناسبة؟ شعر أبيض، وجلد متغضن، وأجفان متورمة، والله الشيطان يهرب من هيئتي.

زوجته تعلق:

ـــ والله يا رجل، أنت ظلمت نفسك، أنت تبالغ، مثلك رجال فوق الستين تزوجوا وأنجبوا.

يضحك، يضحك هذه المرة أكثر، ثم يعلق:

ـ وأنا سأنجب حتى ولو لم أتزوج.

تنظر إليه مدهوشة:

ـ كيف؟ ماذا قال لك زميلك نجدة؟

ـــ اسمعي: عرض علي العمل في المحاسبة في مستشفى للتوليد، كل يوم أرزق بعشـــرة أطفال أو عشـــرين، ومع كل طفل تـأتيني الهدايا والأطعمة والحلويات من كل صنف ولون.

الزوجة تكاد تزغرد وتقول:

ـ الحمد لله، والراتب...

يقاطعها:

ـ أنت كل همك الراتب، ما سألت عن الدوام وطبيعة العمل؟

ـ دوام طبيعي، اعتبر نفسك عدت إلى الوظيفة ولم تتقاعد، لكن قل لي: كم الراتب؟

ـ الراتب ضعف راتبي التقاعدي.

ـ هذه المرة لا بد من الزغرودة.

وتطلق زغرودة طويلة، يقاطعها، فيقول:

ـ لكن اسمعي، الدوام من الساعة ٧ صباحاً حتى الساعة ٤ مساء.

تصمت، تضيف:

ـ ياليت الدوام في الليل، أنت تحب السهر.

ـــــ غير ممكن، زميلي نجدة هو الذي يعمل في الليل، من الرابعة حتى الثانية بعد منتصف الليل.

. ليته يتبادل معك في الدوام.

ـــ لا يمكن، نجدة يدوام في المؤسسة في النهار، ويعمل في المستشفى في الليل، في الرابعة يأتي، فأسلمه الصندوق، ويقعد في محلي.

ـ هذا أفضل من الجلوس في البيت أمام أفلام أيام زمان.

ـــ لكن لا عطلة، لا الجمعة ولا السبت ولا الأحد ولا في الأعياد، حالات الولادة لا تعرف العطل.

يصمت، ينفث الدخان، تسأله وهي مرتاحة إلى الجلوس معه:

ـ والمستشفى؟ بعيد ... قريب؟

ـ سيارة تأخذني، وسيارة تعيدني إلى البيت، ووجبة إفطار وغداء مثل ما يقدم من وجبات لنزيلات المستشفى.

ـ والله هذه الوظيفة أحسن من وظيفة مدير مؤسسة البريد التي كنت تعمل فيها.

ـ لكن هناك شرط.

ـ ما هو؟

ـ ممنوع التدخين.

تصيح:

ـ أوه، الحمد لله، والقهوة؟

ـ لا مشكلة مع القهوة.

وتعلق:

ـــ صـــديقك نجدة هذا يفتدى بالروح، بارك الله فيه، وكيف دبر لك هذا العمل؟

ـــ كان عندهم محاسب في النهار، لكن تنبه المدير إلى سرقاته، فصرفه، وطلب من نجدة ترشيح موظف بديل، فاختارني لهذا العمل.

زوجته تعلق:

ـ الحمد لله، جاء الفرج.

يشعل سيكارته، يتكلم:

ـ لكن، نسيت، عندي شرط.

تسأله:

ـ وما هو؟

ـ لا بد من تلفزيون صغير في غرفتي بالمستشفى.

ـ اطمئن، أنا أعرف، كل غرف المستشفيات فيها تلفزيون.

ـ وحتى في غرفة المحاسب؟

- وحتى في غرفة المحاسب والممرضات والأطباء.

وتضحك، وهي تضيف:

- وحتى في غرفة العمليات.

وبعد تردد وحيرة وقلق وتشاور يومين، يجد الرجل نفسه مضطراً إلى قبول العمل محاسباً في مستشفى التوليد.

*

وتتغير حياة الرجل.

يحلق ذقنه كل يوم، يستيقظ في السادسة، في السادسة والنصف تمر به السيارة، في السابعة يكون على رأس عمله، وفي الرابعة والنصف يكون في بيته، توصله سيارة المستشفى إلى أمام باب العمارة.

ينام في العاشرة تماماً، قد يرى فيلماً أو فيلمين، لكن لا بد من أن ينام في العاشرة، حتى يستيقظ في السادسة. طبعاً لا بد من السيكارة، فور عودته إلى البيت لا بد من دلة القهوة والسيكارة، ولكنه لا يكاد يستهلك غير علبة سكائر واحدة، وأحياناً أقل من علبة.

وامتلأت الثلاجة بالفاكهة، عدا اللحوم وأصناف الطعام، وأغدق على بناته وعلى ابنه الهدايا، فمع كل مولود لا بد من هدية مادية تقدم له، وهو المحاسب وأمين الصندوق.

في البداية أحس بالضيق والاكتئاب، وكان يظن أنه سيشم روائح الأدوية والمطهرات، وسيرى جثث الموتى، ولكن سرعان ما وجد نفسه في غرفة واسعة، وفيها تلفاز، وكل يوم يرى الورود والزهور والهدايا وأصناف الطعام والمآدب التي تقام للأمهات الوالدات في المستشفى، ولا سيما تلك الوالدة التي تضع مولوداً ذكراً أو تضع مولودها الأول، وأحس أنه مع الولادة والحياة والتجدد، فكل يوم وجه جديد، بل وجوه جديدة تأتي إلى العالم، وكل يوم بسمات وزغاريد وأفراح تقام حتى في غرف المستشفى وفي بهوه. وفي كثير من الحالات يخص بعلبة من الطعام أو الحلويات، فتنعم بها زوجته وأولاه. ولحسن حظه، طوال سنتين من العمل في المستشفى لم تحصل حالة وفاة لا عند الوالدات ولا في المواليد. لا يعرف كيف واتاه الحظ فجأة. وعادت إليه صحته، وتورَّد وجهه، وزاد وزنه، وبدأ شيئاً فشيئاً يقلل من تدخين السكائر، وإن كان

لم يقلع عن التدخين، ولم ينقطع عن مشاهدة أفلام أيام زمان في غرفة المحاسبة في المستشفى وفي غرفته الخاصة بالمنزل.

*

ومرت سنة أو بعض السنة، وهو يزداد سروراً بالعمل، وزاد من سروره اللقاء كل يوم مع صـــديقه نجدة، وبدأ الجيران والأقارب والأهل والأصـــدقاء يترددون إليه، يرجونه أن يتوسط لهم لدى مدير المستشفى كي يمنحهم لأجله حسماً خاصاً، وكان لا يتردد في مساعدتهم، بل يجد السرور في قدرته على تقديم العون لهم، وكان مدير المستشفى يثق به، كما زاد من سروره نجاح ولده في امتحان الشهادة الثانوية، الفرع الأدبي، وقد انتسب إلى قسم اللغة الإنكليزية، لكنه أحس بحسرة في نفسه، تمنى لو يرى ابنه طبيباً في المستشفى مثل باقي الأطباء الشباب الذين يتنقلون بين الممرضات الصبايا، وحز في نفسه أكثر لو أن هذا العمل أتيح له قبل عشر سنين لا الآن وقد تجاوز الستين.

*

ولكن، ذات يوم، رجع إلى البيت، دخل إلى غرفته، وأخذ يدخن، أحضرت له زوجته دلة القهوة، وظل يدخن ويشـــرب ويشـــاهد أفلام أيام زمان. شـــكَّت زوجته في الأمر، ولكنها صمتت. بلغت الساعة العاشرة، الحادية عشرة، الثانية عشـــرة، وهو ما يزال في غرفته، يدخن ويتفرج على التلفاز ويشـــرب القهوة. دخلت عليه زوجته، وقفت أمامه صامتة، قال لها:

ـ نامي، لا تقلقي.

ـ وأنت؟

ـ لن أنام.

ـ وعملك؟

ـ لن أذهب.

ـ أنهى المدير عملك؟

ـ لأ، أنا أنهيت عقدي.

ـ عثرت على عمل جديد؟

ـ لأ...أرجوك، نامي ولا تسألي.

تربت على كتفه، توليه ظهرها وتهم بالخروج، ولكنها ترجع لتقول له:

ـــ أرجوك، أطفئ السيكارة قبل النوم، أخشى سقوطها من يدك وأنت بين الصحو والنوم، سمعت عن رجل سقطت بقية السيكارة في فراشه، وهو نائم، فاحترق الفراش واحترق الرجل.

يعلق:

ـــــ لا تخافي، أنا لا أُبقي من السيكارة أي شيء، أنا أحرقها كلها، حتى العقب، لذلك لا تخافي، لن تحرقني.

*

في ذلك اليوم تقدم منه رجل عجوز، دفع المبلغ المطلوب، ثم قدم له علبة حلوى، وورقتين نقديتين، وقال له:

ـ هذه هدية لك، أرجو قبولها.

وابتسم، وقال له:

ـ مبارك، هذا حفيدك الأول؟

رد العجوز:

ـ لأ، هو ولدي العاشر.

مد رأسه نحوه، وسأله:

ـ كم عمرك؟

ـ حوالي السبعين.

ـ من زوجة جديدة؟

ـ نعم، توفيت زوجتي، أم أولادي، وبقيت خمس سنين من غير زوجة، ثم هداني الله إلى أرملة في الأربعين، توفي زوجها، وتزوجتها.

ـ وعندها أولاد من قبل؟

ـــــ لأ، لم ترزق بولد، تزوجتها على هذا الأساس، لكن كان زوجها هو المسؤول عن عدم الإنجاب.

ـ وأنت ماشاء الله

يضحك، يعلق:

ـ الحمد لله، هذه نعمة من الله، وصدقني كنت أتمنى أنثى، لكن الله رزقني بذكر، عندي تسعة ذكور، وصاروا عشرة، أشتهي البنت، البنت حنونة، ووجودها في البيت بركة.

ـ وعملك؟

ـ حارس في معمل.

ـ وفي هذه السن؟

ـــ نعم، في هذه السن، المعمل خاص، صاحبه أكرمني، ثلاثة من أولادي معي في المعمل، لا يتركني، ولو صار عمري مئة، بنى لي ثلاث غرف فوق سطح المعلم، أعيش فيه أنا والأولاد.

ـ وكيف ستعيل عشرة أولاد، وزوجة جديدة ومولوده الجديد؟

ـ المعيل هو الله.

ـ لا إله إلا الله، يكفيك راتبك؟

ـــ قلت لك، ثلاثة من أولادي لهم عمل في المعمل، لكن والله لا آخذ منهم أي شـــيء، ممكن العيش بمئة وممكن العيش بمليون، المهم الصـــحة والعافية والقناعة، وفي النهاية، القبر واحد، قبر صاحب المليارات مثل قبر من لا يملك أي شيء، هي مجرد حفرة، المهم حياتك، اعرف كيف تعيشها.

ويصمت، ثم يسأله:

ـ كثير عشرة، والله يا أخي، لماذا عشرة؟

العجوز يضحك، يعلق:

ـــــ حتى يشتغل المستشفى، وحتى تعمل أنت، ويعمل الأطباء، وتعمل الممرضـــات، هل تعرف بغل الطاحون؟ لا بد له من الدوران، حتى يدور الطاحون.

ثم ودعه وانصرف.

*

حقيقة لماذا عشـــرة أولاد؟ ولماذا يولد كل يوم أكثر من عشـــرة، وأحياناً أكثر من عشـــرين؟ ولماذا لا بد من دوران الطاحون؟ لماذا لا يتوقف هذا الطاحون؟

حقيقة أنا بغل الطاحون. الآن عرفت. أكثر من ثلاثين ســـنة وأنا في خدمتهم، كنت أظنهم زملاء أصدقاء، كنت أظن نفسي صاحبهم وصديقهم، ما طلب أحدهم ســـلفة إلا أعطيته، وكثيراً ما كنت أقبِّض أحدهم راتبه قبل نهاية الشـهر بخمسـة أيام أو حتى سـبعة، يأتيني يشـكو، فأعطيه، ويمرض أحدهم

فيرسل ابنه، فأعطيه راتب والده، على الثقة، ثم تقاعدت، ما سأل عني أحد، عرفت الحقيقة، كنت مجرد أمين صندوق، مجرد محاسب، مجرد معتمد، أنا بالنسبة إليهم مجرد كيس مال يتحرك، أو كما كان يقال: "كيس خرجية"، وأولادي ليسوا بأفضل منهم، حتى أولادي، أنا بالنسبة إليهم مصدر تمويل، أنا مصرف، أنا بنك، دائم السيولة، حتى بعض المصارف تفلس، وأنا يجب ألا أفلس، يجب تلبية طلباتهم، إلا أنت يا بهيرة، الحقيقة ما طلبت مني أي شيء، أنت غير كل نساء الأرض، أنت عزائي الوحيد، لكن أنا أعرف طلباتك، وألبيها، قبل تصريحك عنها، قبل طلبها، بل قبل التلميح إليها، وتقاعدت واسترحت من الدوران، والطاحون يدور على الراتب التقاعدي، والأمور ماشية.

وجاء نجدة ورشحني للعمل في المستشفى، أنا أعرف، لا عن حب لي، لكن لأجل مصلحته هو، يخاف من تعاقد مدير المستشفى مع محاسب يعمل في الليل والنهار، فيستغني عن خدماته، لذلك رشحني، من أجل استمرار عمله في المستشفى، لا عن حب لي.

وعدت مرة ثانية إلى الدوران، مر حوالي سنتين وأنا مرة ثانية بغل الطاحون، وفي هاتين السنتين لبيت كل طلباتهم، بل حققت لهم أكثر مما يتمنون أو يتوقعون، ثم ماذا بعد؟ وإلى متى؟ وهل لهذا من نهاية أو حد؟ ولماذا؟ الآن عرفت، أنا مجرد بغل الطاحون، عليَّ الدوران والدوران والدوران. اليوم سيتوقف بغل الطاحون عن الدوران، سيرفع الكمامة عن عينيه وسيتوقف عن الدوران.

*

فور انصراف الرجل العجوز، صعد إلى المدير، قدم استقالته، وانتظر إلى الرابعة، حتى جاء زميله، سلمه الصندق، وعندما جاءت السيارة لتوصله إلى البيت، اعتذر، وصمم على العودة إلى البيت ماشياً، وقد قرّر ألا يخرج من غرفته، ليعيش حياته.

*

وقبل أن تخرج زوجته من الحجرة تسأله:

- وهل ستسهر إلى الصباح.

ـ سأسهر إلى ماشاء الله.

ـ أنا أشفق عليك.

ـــ أرجوك، لا تشفقي علي، أنتم عشتم حياتكم سنتين مرفهين منعمين، أنا وفرت لكم كل شيء، بصراحة، يا بهيرة، تعبت، وهذه ابنتك أصبحت محامية تمارس المهنة، ولينا الصغرى تزوجت، لم يبق عندك غير صدقي ويمنى، وعندكم ما يكفيكم سنتين أخريين، عدا راتبي التقاعدي، الشغل لا نهاية له، اتركيني لأعيش أنا حياتي مثلما أريد ولو يومين.

تتركه وتخرج.

*

في الفجر تنهض، تصلي، تقعد على سجادتها تتلو في القرآن، تظل في موضعها حتى تشرق الشمس، ويحل الصباح.

تعد الفطور لأولادها، كعادتها.

تقترب من باب الحجرة، تسمع صوت التلفاز، تدخل بهدوء، تلقي نظرة، وإذا هو في السرير مغطى باللحاف، تقترب من التلفاز، لتغلقه، فيأتها صوته:

ـ اتركيه، أنام على صوته، هو لا يزعجني، ولا تدخلي علي مرة ثانية.

تدنو من منفضة السكائر، تمد إليها، لتحملها، يأتيه صوتها:

ـــ أرجوك، لا تحملي المنفضة، اتركيها، دعيني أستمتع برؤية أعقاب السكائر التي دخنتها، أحس بها، هي عمري، ولا ترمي الرماد، هو حقيقة وجودي، ولا ترمي علب السكائر الفارغة، كلما كانت البقايا أكثر أحسست بالعيش أكثر.

وتعلق:

ـ لكن رائحتها؟

ـ لا تحرميني منها، هي رائحة حياتي أنا، هي رائحة الحياة.

تقف صامتة، يضيف:

ـ أرجوك، اتركيني وحدي، كي أعيش.

*

تتركه، تخرج، وهي تمسح دمعتين من عينيها.

تمضي إلى مصحفها تقرأ فيه، وتبتهل إلى الله.

*

وأنا صـــغير كنت أرســم واحة باللون الأزرق، وســط محيط من الرمال باللون الأصــفر، ثم أرســم شــجرتي نخيل خضــراء، وجملين أو ثلاثة، قافلة جمال، منفضــة السـكائر هي واحتي الآن، وعلب السـكائر الفارغة هي قافلتي، ليتني ما رميت علب السكائر الفارغة منذ ولدت.

*

عند الثانية بعد الظهر تقترب من باب الحجرة، يتناهى إلى ســـمعها من التلفار صوت فاتن حمامة المتميز، ترجع.

بعد ربع ســـاعة تعود مرة ثانية، ينتابها قلق، تفتح الباب وتدخل، علبة الســـكائر فارغة، دلة القهوة فارغة، وهو ما يزال يغط في النوم، تقترب منه، تجد خيطاً من الزبد الأبيض متجمداً عند زاوية فمه، عيناه مفتوحتان على الآخر، تهزه، تناديه، وما من جواب.

منذ سـنتين أوأكثر، وهي تعمل في هذا القسـم، لا يهتم بها، ولا يبالي، يعتبر وجودها أمرًا عاديًّا، هي عاملة خدمة وتنظيف في المستشفى مثل كثير من العاملات.

تمسح أرض الممر، تمسح البهو، طبعا تمسح أولا غرفته، وطاولته، والنوافذ، ثم تمسح غرف باقي الأطباء، ولكنها تعتني به أكثر، فهو رئيس قسم الجراحة العينية، ويدخل ويخرج، لا يبالي بها، وكثيرًا ما دخل وهي تمسح زجاج طاولته، ولا يهتم.

ولكن بدأ في اليومين الأخيرين ينظر إليها، يتفحص ملامحها، يبحث عن تعبير ما في عينيها، أو حركتها، أو في التفاتتها، يريد أن يصل إلى شيء.

وانتبهت إليه، أحست هي أيضا بنظراته.

بدأت تعنى بنظافة غرفته أكثر، تمسح زجاج النوافذ، تمسح زجاج طاولته مرات ومرات، بدا الزجاج أكثر لمعانًا، أخذت تتعمد الحضور إلى غرفته مع وصوله، ليراها وهي تمسح زجاج الطاولة.

لم يكلِّمها في شيء، وهي لم تكلِّمه، ترميه بنظرة، وتبتسم.

وتظل نظرته حادّة ثاقبة، يريد أن يفهم شيئًا، يريد أن يصل إلى قرار، كأنه محقِّق، لا طبيب عيون، كأنه قاضٍ يريد أن يتخذ حكمًا، لا دليل لديه، لكن يريد أن يعرف الحقيقة من ملامح الوجه ومن نظرات العينين، تمنى لو أن جهاز فحص العين يكشف عن الحقيقة.

وجه أبيض منور مشرق بريء، لا يمكن اتّهامه بشيء، غمَّازتان في الخدين، يظهر بهما الوجه مبتسمًا دائمًا، وإنْ لم تبتسم، عينان سوداوان، مكحولتان، من غير كحل، شعر أسود طويل مرسل على الظهر، ثياب محتشمة، لا تدل على فقر، بل تدل على ذوق، العمل ليس عيبا أيا كان، ربما كانت ظروفها لم تساعدها على متابعة الدراسة، لا يعرف عنها شيئًا، هي من غير شك متزوجة، جسمها ممتلئ، في نحو الخامسة والثلاثين، ربما توفي زوجها وترك لها أولادًا، أو لعله عاجز عن العمل، أو لعله عامل مثلها.

وهي شـــريفة، نزيهة، لم يتكلم عليها أحد بســـوء، يعرف هو ذلك جيدًا، ويعرف أيضًا أنها لا تقبل عطاء لا من طبيب ولا من مريض ولا من زائر.

مهما يكن وضـــعها، هو طبيب في عمله، وهي عاملة تنظيفات، لا يهمه من أمرها شيء، وما كان ليفكر فيها، من قبل، هو لا يزدريها، بل يقدِّر عملها، ويُشفق عليها، لكن فقط يريد أن يعرف الحقيقة، يريد أن يصل إلى قرار بشأنها.

هل يكلِّم المدير؟

اهتمامها به زاد، لكن في خجل، تســـتقبل نظرته القاســـية المتفحصـــة بابتسامة خفيفة.

هل تريد خداعي، وأنا في الخمســـين من العمر، وأنا طبيب العيون، كل يوم أفحص عشـــرات العيون، أنظر في أعماقها، هل تحاول الظهور بمظهر البريء، وجوه كثيرة بريئة، لكنها تخفي وراءها ما تخفي.

للأسف درست تشريح العين، ولكن لم أدرس النظرة.

مرَّ نحو الشـهرين وهو بين شـك ويقين، لم يسـتطع الوصـول إلى قرار، يريد أن يحسم الأمر.

مرة واحدة فقط تجرأت وسألته:

ـ دكتور، أعجبك المكتب، تريد أي خدمة أخرى؟.

نطق بسرعة وهو متجهِّم:

ـ لأ، شكرا.

وأولاها ظهره ثم خرج.

توجـه إلى غرفـة المـدير، يريد أن يحدّثه عنها، وجد مدير المشـــفى وهو يخرج من غرفته، رحب به، وقال له:

ـ تفضل، هل أرجع.

ورد عليه:

ـ لا شكرا، كنت فقط أريد السلام عليك.

*

بعد نحو شـهرين يدخل المشـفى راجعًا من محاضـرته في الجامعة حاملا حقيبته البنية، في الممر يجد عاملة متقدمة في العمر، تمســـح الممر، يشـــعر بالراحة، لا شك أن تلك العاملة قد نقلت، يبادر إلى سؤال العاملة العجوز:

ـ أنت هنا جديدة في العمل؟

ترد:

ـــــ نعم، أنا انتقلت إلى محل ابنتي، راضـــية، الله يرضـــى عليها، أنا أم راضية، وهي انتقلت إلى محلي في المشفى الوطني، هناك حارس في المشفى، توفيت زوجتـه، وعنده ثلاثـة أولاد، وبنتي، المســـتورة، الله يرضـــى عليها، تزوجت من خمس سنين وما أنجبت، زوجها طلقها، وهذا الحارس يريد زوجة ترعاه وترعى أولاده، يريد امرأة لا تنجب، حدثته أنا عنها، هي نصيبه، الحمد لله، لا نعرف، وقد ترزق منه بولد، وبيته قريب من المشـــفى الوطني، ومدير الصحة وافق على الانتقال مباشرة، هذا توفيق من الله.

وترسل زفرة، ثم تضيف، وتبتسم مثل ابنتها:

ـ وهي حكت لي عنك، أنت الدكتور سامي.

رد بامتعاض:

ـ نعم، أنا هو.

وتعلق والسرور يعلو وجهها:

ـــــ نعم، عرفتك من وصـــفها لك، وحديثها عنك، هي تحترمك كثيرًا، وأوصـتني بالعناية بغرفتك، حضرتك رئيس قسم الجراحة العينية، والله مسحت غرفتك واعتنيت بها أكثر من كل الغرف.

أولاها ظهره ومضـــى إلى غرفته، لم ينطق بكلمة، بل اســـتاء لأنه بادر العجوز بالكلام.

انتقلت البنت، وجاءت الأم، لا شك في أنها أكثر وقاحة من ابنتها، تتظاهر بالطيب والبراءة، وتبتسـم مثل ابنتها، وتقول: "ابنتي حدثتني عنك، وأوصـتني بك"، شكرا لهذه التوصية.

دخل مكتبه، وضع حقيبته الجلدية البنية على المنضدة، وجد على المنضدة بطاقة دعوة لحضـور محاضـرة في مديرية الثقافة، نادرًا ما تأتيه دعوات من مديرية الثقافة، قرأ العنوان:" نظرات العيون في الشـعر العربي"، ســخر من العنوان، ومن اســم المحاضـــر، وهو الذي لا يهتم بـالشـــعر، تذكر عـاملة التنظيفات، التي لم يدرك حتى الآن سر نظرتها، أعاد قراءة العنوان.

قد نحضـر المحاضـرة، لعلنا نتعلم بعد هذا العمر سـر نظرات العيون؟ ولكن ماذا سيقول المحاضر؟

كلام الشـعراء لا أقتنع به، إن هو إلا أوهام، لاحب ولا عيون، ولا نظرة أولى ولا نظرة أخيرة، هي مجرد مصلحة مشتركة يسعى طرفان إلى تحقيقها، ويبرران هذا السعي بالحب، هذا إذا لم نقل هي غريزة تنضج، تتحرك، تنفجر، مثل البركان، والعيون هي فوهة البركان.

ثم يخمد البركان، وتتحول الفوهة إلى بِركة ماء آسن.

لا أظن أني سأحضر.

همَّ بوضـع بطاقة الدعوة في الجيب الداخلي من الحقيبة، حيث يضع عادة الأوراق التي يريد أن يتذكرها ولا ينساها، وهو يضع البطاقة في الجيب، وجد ظرفا أبيض، مكتوبا عليه: "أبو أحمد"، هو الظرف نفسـه، فتحه، فيه خمسـة آلاف ليرة، إحدى الوريقات من فئة الألف، جانبها ممزق، وعليه شريط لاصق شفاف، هي الآلآف الخمسة نفسها، وهو الظرف نفسه.

يا إلهي.

*

قبل شـهرين كان قد رجع من الجامعة إلى المشـفى، دخل غرفته، ارتدى الصدرية البيضاء، وهو في عجلة من أمره، ثم غادر المكتب، قاصدًا إلى غرفة العمليات ليجري عملية زرع قرنية، لكنه انتبه الى الحقيبة الجلدية البنية، يحملها بيده، وهو ذاهب إلى غرفة العمليات، سخر من نفسه، ضحك، لا حاجة له بتلك الحقيبة التي لا يحملها إلا في الشـهر مرة، عندما يذهب إلى الجامعة ليلقي فيها محاضـرته الشـهرية، رجع إلى المكتب، اسـتل من الحقيبة ظرفا أبيض، فتح الدرج، رن جرس الهاتف، أعاد الظرف إلى الحقيبة، رد على الهاتف ثم أسرع إلى غرفة العمليات.

بعد نحو الساعة، خرج من غرفة العمليات مرهقا.

أسـرعت إليه العاملة راضـية بفنجان قهوة، شـربه، فتح الدرج، لم يجد الظرف.

ثار غضبه، هم بمناداتها، ولكنه تردَّد.

فتح الأدراج كلها، أفرغ محتوياتها، أعاد ترتيبها، مزق كثيرا من الأوراق التي ليس بحاجة إليها، نظر تحت الطاولة، أسفل جهاز الهاتف، في جيوب معطفه.

هو مبلغ بسيط جدا، هو المبلغ الذي يعطيه كل شهر للبواب الذي يركن سيارته في المرآب، ويمسحها، وأحيانا يأخذها ويملأ خزانها بالبنزين، وقد وضعه في الظرف كي يعطيه إياه، كعادته كل شهر، وكتب عليه: "أبو أحمد"، ولا يمكن أن يختلط بظرف آخر، أو يضيع.

*

وهو يغادر المشفى، رأى أم راضية في البهو، فتح الظرف، ناولها المبلغ، وقال لها:

ـ هذا هدية لبنتك راضية، وسلِّمي لي عليها.

ثم همس في سره:

ـ وقولي لها الدكتور سامي يطلب منك السماح.

وهبط على درج المشفى، وقد قرر حضور المحاضرة.

دفع البـاب الزجـاجي بهـدوء ولطف، وخطـا داخـل الفنـدق بخطوات محسـوبة، على اليمين للخروج، وعلى الشـمال للدخول، عبر قوس إلكتروني، وعامل الفندق بزيه الرسمي يقف إلى جوار القوس.

لم يقل لي أحد ادخل من هنـا، أو ادخل من هنـاك، أنـا سـأختـار بملء حريتي، الخطوة الأولى التي أخطوها داخل القوس، هي اختيـاري الحر، كلمـة دخول المكتوبة على الباب لا تجبرني، ولا الحارس يستطيع منعي، بكل بساطة أستطيع أن أقتحم باب الخروج وأدخل منه، لن يحدث شيء، سيتقدم مني عامل الفندق، وسيقول لي: الدخول من هناك، وسأعتذر إليه، بعد أن أكون قد دخلت، ولكني سأختار المرور عبر الوقس، هذه هي حريتي.

يتقدم من عاملة الاستقبال، يحييها بلطف، ثم يقدم لها نفسه:

- أنا فريد، فريد وحيد.

عاملة الاستقبال تبتسم ابتسامة خفيفة، ترحب به، وتقول:

- أهلا بك أستاذ فريد.

وتلتفت، تستل من الخزانة وراءها جواز سفر بداخله بطاقة طائرة، تضعه أمامه على المنصة، وهي تقول:

- هذا جواز سفرك، وعليه الفيزا، وفيه تذكرة الطائرة، السيدة فرانسيس في غرفتها.

وتنظر في ساعة يدها، ثم تضيف:

- بعد ربع سـاعة بالضـبط سـتصـل سـيارة إير فرانس لتحملكما إلى المطار، تفضل انتظرها في المقهى، تفضل جوازسفرك، وبطاقتك.

يدفع بيده نحوها جواز سفره، وهو ما يزال على المنصـة، ويقول لها:

- ضعيه من فضلك مع جواز السيدة فرانسيس.

ويهم بالمضي إلى الباب الجانبي المفضي إلى المقهى، فتسأله:

- أستاذ وحيد، أين حقيبتك؟

يلتفت، يبتسم بهدوء:

- أنا مسافر من غير حقائب، لا أحب حمل أي شيء، أحب الحرية.

وبخطا هادئة، يدخل إلى المقهى ذي الواجهات الزجاجية المطلة على تقاطع أربعة شوارع.

المقهى غير مزدحم، معظم المناضد شاغرة.

هنا يمكن أن أختار بحرية، لا زحام، والمناضد كثيرة، الزاوية هناك مطلة على تقاطع الشوارع الأربعة، مجال الرؤية أمامي واسع ومفتوح، يتيح لي حرية الرؤية.

لن أنتظر النادل حتى يأتي إلي ليمنحني حرية الاختيار، أنا سأختار بنفسي وبحرية مطلقة.

ويشير إلى النادل، وقبل أن يتكلم النادل يقول له:

- لا تعرض عليَّ ما عندكم، لا تخيرني، أنا سأختار لنفسي بنفسي، بحرية، أريد فنجان قهوة من غير سكر.

ينحني النادل باحترام ويمضي.

اليوم، ولأول مرة بحياتي، أحس أنني بدأت أمارس حريتي الشخصية، بصورة مطلقة، طوال خمس وثلاثين سنة، لم أحس فيها بمعنى الحرية، ولم أعرف معناها.

مجموع علاماتي في الشهادة الثانوية فرض عليّ الانتساب إلى كلية الحقوق، كنت أتمنى الانتساب إلى كلية الفنون الجميلة، هوايتي الرسم، من حرية اللون إلى قيود القوانين، وأبي وحيد، واسمي يجب أن يكون فريد، من أجل القافية، كلمة يجب دائما هي الواجب المقدس، ولدت في أسرة غنية، أبي طبيب جراح، لا خيار لي في سلوكي وتصرفاتي وأعمالي وكلماتي، حتى ثيابي يجب أن تناسب الأسرة التي أنتمي إليها، وبعد التخرج يجري تعييني في أمانة السجل المدني، قسم حالات الولادة، ثم نقلت إلى قسم حالات الوفاة، عينت، ثم نقلت، هم عينوني، وهم نقلوني، والولادة لا حرية فيها ولا اختيار، والموت لا حرية فيه ولا اختيار، منى أحبتني، هي زميلتي في قسم الولادات، هي أحبتني، وعرضت علي الزواج، لا حرية لي في اختيارها، في السنة الرابعة أحببت سنية، وتولهت بها حبا، ثم سألت نفسي، هل حبي لها حرية؟ لو

لم تكن زميلتي في السنة الرابعة، ما كنت أحببتها، حبي لها مشروط بزمان ومكان، السنة الرابعة، والجامعة، ثم اختارت لي أمي ابنة خالتي، أي ابنة أختها، وهل هذا اختيار؟ نخدع أنفسنا، حين نقول اخترنا، ثم دارت سبع حارات، ورأت عشر فتيات، وقالت لي اخترت لك، شقراء، زرقاء العينين، رشيقة الحركات، هو اختيار مقيد بالجسد، حتى زميلي في السجل المدني، لم أختره، ولم يخترني، الزمالة فرضت علينا.

ويتقدم منه النادل يضع أمامه على المنضدة فنجان القهوة، ويهم بوضع كأس ماء، فيصيح به:

- لم أطلب كأس الماء، لماذا تفرضها علي.

النادل يرفع الكأس، ويهمس:

- اعذرني، هذه هي العادة.
- ولماذا هي عادة؟
- هكذا أوصانا مدير المقهى.
- لا تنفذ، مَنْ أجبرك؟.
- أنا عبد مأمور.
- لا تقل هذا، ارفض، لا تنفذ، قل أنا حر، اصنع حريتك.

فرانسيس هي الحرية الحق، لا أعرفها، ولا تعرفني، تعرف القليل من العربية، وأعرف القليل من الفرنسية، في الرصيف المزدحم، استوقفتني، بحرية مطلقة، سألتني عن موقع المتحف، وبحرية مطلقة، عرضت عليها أن أصاحبها في الزيارة، هذه هي الحرية الحق، غير مشروطة بزمان أو مكان أو قرابة أو لغة أو تاريخ أو ثقافة، خلال ثلاثة أيام أصبحنا صديقين، خلال يوم واحد، حصلت لي على فيزا، وبعد ساعتين تقلع بنا الطائرة إلى باريس، عاصمة النور، قالت لي: الحرية الحق هناك في باريس.

ويأخذ رشفة من الفنجان، يرفع عينيه، يرى عبر زجاج المقهى إشارة المرور عند التقاطع.

حمراء، تقف السيارات، خضراء، تسير السيارات، والشرطي يشير إلى السيارات بيديه، يمنح الحرية لهؤلاء، ويقيد أولئك، ثم، ما هذا الجنون، هل هو حقا مالك الحرية، وهل هذه حرية، ولماذا يطيع السائقون إرادته، هذه هي قيود

الزمان والمكان، حتى المشاة، تقيدهم إشارة المرور، وما هذه القضبان الحديدية على جانب الرصيف، كأني أراها أول مرة، لا حرية حتى للمشاة على الأرصفة.

ويرفع فنجان القهوة إلى فمه.

لماذا بعد ربع ساعة؟ لماذا لا تنزل فرانسيس فورا؟ ولماذا الانتظار هنا في مقهى الفندق؟ ربع ساعة في مقهى الفندق، الزمان والمكان، ولماذا فرانسيس بالذات، لو لم تكن سائحة قادمة من باريس لما صادفتني على الرصيف، هي اختارتني، وأنا عبد مأمور، كما قال النادل، حقيقة، عبد مأمور، لماذا لا يرفض هو؟، لماذا لا أرفض أنا؟، سأرفض، لا، قهوة، ولا فرانسيس، ولا كأس ماء، أين الحرية، لا يوجد حرية.

وأطلت من باب المقهى صبية شقراء، تحمل جوازي سفر بيدها، رآها، فنهض، حمل فنجان القهوة، قذفه نحو الزجاج، تحطم الفنجان، واندلقت القهوة.

وقبل أن تصحو هي والرواد من هول المفاجأة، كان الرجل قد صار في الشارع، يركض بين السيارات المنطلقة، والناس ينظرون إليه وهم يضحكون، وهو يشير بكلتا يديه ويصيح:

- لا حرية، حتى في باريس.

وقف عميد الكلية وراء المنصة، وقدم إلى طلابه ضيفه سعادة المستشار، وعرفه بأنه كان أستاذه أيام التحضير لرسالة الدكتوراه، ونهض المستشار، صافح العميد، ثم وقف أمام المنصة، لا وراءها، وقال للطلاب:

- أريد أن أكون أمامكم، لا وراء المنصة، أريد أن أكون معكم.

طويل، شعره أبيض، مشرب بالحمرة، لم تسقط منه شعره، وهو قريب من السبعين، عيناه واسعتان، زرقاوان، تأتلقان، يتكلم وهو يشير بيديه، بدلة بيضاء، تحتها قميص أسود، فوقه ربطة عنق بيضاء، عقدتها بسيطة.

بدأ الكلام، وهو يمسك لاقط الصوت بفنية عالية.

- سأحدثكم اليوم عن القانون الدولي، قانون البحار، تعرفون أن ١٢ ميلا هي مسافة المياه الإقليمية، وما بعدها مياه دولية، لكن هل هذا خاص بالتجارة أو الصيد أو بالأساطيل.....

وذهبت سلمى إلى البحر، شردت وراء يديه وهو يشير بهما، تلقت من عينيه نظرة، كأنها نظرة نسر جارح، ردتها إليه بأقوى، المحاضرة لها وحدها، حذاؤه أسود لامع، أنيق، مشيته متميزة، وهو يروح ويجيء، طوله فارع، كل شيء فيه مختلف عن كل الأساتذة، لماذا لا يحاضر فيهم؟ كل الأساتذة يقعدون وراء المنصة ويتكلمون، لا أحد منهم يقف، حتى الدكتور فيصل، ابن الثلاثين، يقعد، ولا يتحرك، بنطاله مكوِيٌّ، حده واقف مثل حد السيف، وهي تنظر إليه من أسفل، تحس أنه أطول مما هو في الحقيقة، صدرع عريض، بطنه ضامر، تلقَّتْ منه نظرة ثانية إلى قميصها المفتوح عن صدرها، أحست باللؤلؤة البيضاء المعلقة بسلسلة ذهبية قد اشتعلت نارًا، أمسكتها بإصبعيها، وضعتها بين شفتيها، السلسلة تكاد تنقطع، لتسقط اللؤلؤة بين النهدين.

هائل صديقها إلى جوارها، يحاول الالتصاق بها، وهي تبتعد عنه.

أخذت تداعب أزرار قميصها المفتوح، تضع رجلا فوق رجل، تضغط فخذها الأيمن على فخذها الأيسر، عقدت يديها على صدرها، مثل تلميذة مؤدبة، ضغطت على نهديها، عقدت يديها تحتهما، مالت على سطح المقعد،

وضعت عليه صدرها، أحست أن عيني المستشار ونظراته تنصب على فتحة القميص، حيث اللؤلؤة تكاد تنصهر.

صديقها هائل يميل عليها، يهمس لها:

- عجوز مُمِلٌّ، يحسب نفسه في عز الشباب.

تهمس له، وهي تبتعد عنه أكثر من غير أن تلتفت إليه:

- يسلم ذوقك، ترك الشباب كلَّه لك.

انتهت المحاضرة، وكانت أول من رفع يدها تريد السؤال:

ـ أنا سلمى، طالبة في السنة الأولى بقسم القانون الدولي، تحدثت حضرتك عن حق الدولة في قصف أي هدف غريب يدخل مياهها الإقليمية، لنفترض أن زورقًا صغيرًا دخل المياه الإقليمية، وفيه شاب وصبية، هل يجوز تدمير الهدف؟

وضجت القاعة بالتصفيق، وضحك المستشار، ثم علَّق:

_ في هذه الحالة تصبح كل المياه دولية عالمية، لأن الحب عالمي.

ومرة أخرى ضجت القاعة بالتصفيق.

أسئلة الطلاب كثيرة، وخصوصا الطالبات.

أحست بالقهر، أرادت إنهاء الأسئلة، تضايقت من أسئلة الطالبات، وهي تتلقى نظراته.

بدأ يوزع مجّانًا على الطلاب نسخًا من كتابه: "الإبحار"، لم تقترب، انتظرت حتى نفدت النسخ، وهو يغادر القاعة اندفعت نحوه، وقفت أمامه، التصقت به، دفعت صدرها نحوه، رفعت وجهها إليه:

- أين نسختي؟

ملأ عينيه من وجهها، غاصت في عينيه الزرقاوين، صمت وصمتت، هنيهة هي عمر، ثم علق:

- لك نسخة خاصة، محفوظة.

علق عميد الكلية الواقف إلى جواره:

- تأخذينها غدا من مكتبي.

انسلت من بين الزملاء وأسرعت إلى حديقة الكلية.

اسـتلقت على المرج الأخضـر، تحت أشـعة شـمس آذار الدافئة، وراحت تتذكر طوله، وصـــدره العريض، وحدَّ بنطاله الواقف مثل الســـيف، وتتذكر أناقته، ربطة عنقه حريرية ناعمة طويلة، أنيقة، عقدتها سهلة.

فتحت حاسوبها، واتصلت بالشبكة، كتبت اسمه وبدأت تبحث عن سيرته، ومؤلفاته، وعمله.

أصـــابعها تداعب اللؤلؤة المدلاة من عنقها فوق الحاســـوب، وهو تميل بوجهها عليه.

هذا هو مكتبـه الخاص، غرفة طويلة، جدرانها مملوءة برفوف الكتب إلى السقف، مرتبة بأناقة، كرسـي كبير هزاز قبالة النافذة، أمامه منضـدة مستديرة، عليها غليون وعلبة تبغ خاص، طاولة المكتب كبيرة، يتوسطها حاسوب، على يمين الطاولة كتب موضــوع بعضــها فوق بعض بعناية، في مقدمة المنضــدة صف من الكتب مركونة على حافتها، يسند بعضـه بعضـه، على يسار الطاولة مزهرية فيها زهور طبيعية جديدة، شـذاها يملأ المكتب، وهو وراء المنضـدة، مكب على الحاسـوب، تقف أمامه، يرفع رأســه يفاجأ بحضـورها، تميل عليه، وهي تداعب اللؤلؤة المدلاة بسلسلة ذهبية من عنقها، تهمس:

- أريد نسختي.

تمد إليه راحة يدها:

- وأريد توقيعك.

ينهض، يتقدم منها، يداعب ذقنها، وهو يملأ عينيه من وجهها، يمضي إلى أحد الرفوف يستل كتابا، يلتفت إليها ليقول لها:

- ســـأهديك كتابا جديدا عنوانه أيضـــا "الإبحار"، لكنه ليس عن قانون الإبحار، هو ديوان شعر.

تأخذ مكانه وراء المنضدة، تجد أمامها وراء الكتب مسدَّسًا، تلتقطه، تلوح به بيدها، يشير إليها بيده منبِّها:

- أرجوك، ملقم، فيه تسع رصاصات جاهزة للإطلاق.

- لماذا تسع رصاصات؟

- لكي يمنح الحياة الأبدية.

تشم فوهة المسدس:

- نقي، نظيف، متألق، كأنه لم يمنح الحياة لأحد، مع أنه في عمرك، أو أكبر.

- ما استعملته أبدًا.

- لا أريد الكتاب، ولا التوقيع، أريد المسدس برصاصاته.

- لا، أرجوك، هو خاص جدًّا، خذي المكتبة كلها، إلا المسدس.

- لأنه خاص، أريده.

وتوجِّه المسدس نحوه، وتضغط على الزناد.

وتدوي طلقة.

وترفع رأسها، تنهض، وتنقطع السلسلة الذهبية، وتسقط اللؤلؤة فوق المرج الأخضر.

وإذا صديقها هائل قد صفَّق بكلتا يديه فجأة بجوار أذنها وهي مكبة على الحاسوب.

تلكمه في صدره بقبضتي يديها وهي تصيح:

- سخيف، بارد، مزعج.

هائل يلقي نظرة على شاشة الحاسوب، يرى صورة المستشار، وهو في مكتبه، يسألها:

- أعجبك العجوز، وجئت تتقصي سيرة حياته؟! عينان حمراوان متورمتان، ووجه لا حياة فيه، وبدلة قديمة من عهد نوح، ومحاضرة ألقاها من عشرين سنة ألف مرة.

تنظر إليه مستاءة، لا ترد، يضيف:

- ما الذي أعجبك فيه؟ لأنه يشبه والدك أو جدك؟!

تسرع إلى الحاسوب، تغلقه، تحمله، تضمه إلى صدرها، تعلق:

- لم يعجبني أحد، لا أنت ولا هو.

- لماذا لم يعجبك؟

- أهدى كل الطلاب نسخا من كتابي، ونسي إهدائي.

- هذا غير صحيح، أنت تأخرت عن قصد، حتى نفدت النسخ، أنا رأيتك، أنت كنت ناوية على أمر.

يطوق خصرها بيده، ويقول لها:

- خذي نسختي.

تبعد يده عن خصرها، تبتعد عنه:

- أرجوك، اتركني، لا أريدك ولا أريد نسخته، ما عدت أريد أي شيء.

تميل نحو الأرض، تلتقط السلسلة الذهبية، واللؤلؤة.

تسرع إلى مكتب العميد، تقول للسكرتيرة:

- سعادة المستشار وعدني بنسخة خاصة من كتابه، فقط أريد معرفة عنوان الفندق الذي ينزل فيه.

أخرج من الصـــيدلية، في حي الأندلس، حاملًا كيس الدواء بيد، ومتوكِّئًا على عصـــاي بيد، وقد بلغت الســبعين، أســمع صــوت حسُّــونٍ يُطْلِقُ تغريدًا متميِّزًا، وأنا أســير على حافة الشــارع، بجوار الرصــيف، فقد صُــفَّتْ على الرصـــيف، وبالعرض، أربع ســـيارات ســـود كبيرة الحجم، من ذات الدفع الرباعي، أرفع رأســي، فأرى قفصًــا كبيرًا فخمًا فوق إحدى الســيارات، أقف أتأمله. ومن الرصـــيف المقابل، أنتبه إلى خروج رجل ضـــخم الجســـم، من معرض كبير للسيارات، فيه ست سيارات من النوع نفسه، يقترب مني، وهو يسأل بشيء من السخرية:

- عمي الحاج يفكر بشراء سيارة لحفيده في عيد ميلاده؟

أَلْتَفِتُ إليه، أتأمل جســمه الضـــخم، واللغد المتدلي تحت عنقه، والبطن المدورة الممتلئة. أرد بهدوء:

- أنا أتأمل جمال الحسون، وأستمتع بصوته.
- ولكنه ليس للبيع، لو دفعوا لي مليون ليرة فلن أبيعه.
- الله يسعدك به، تعيش وتستمتع بصوته، ولا يضطرك إلى بيعه.

يعلق بجفاء:

- لا يهمني لا لونه ولا صوته، من حين شرائي له، قبل سنة، وإلى اليوم، كلَّما وضعته فوق سيارة، جاء زبون فورا واشتراها، هو فأل خير.

أعلق:

- أنا والله يا بن أخي، فُتِنْتُ بصــوته وبرشــاقة حركاته، ذكَّرني بحســون كان....

يلتفت الرجل الضــخم إلى الرصــيف الثاني، وينادي أجيرًا عنده، وهو يصيح:

- يا حســن، تعال، أدخل الحســون إلى الصـــالة، أخاف عليه من العين الصيَّابة، وأنت ياعمي، صلِّ على النبي، وامشِ في حال سبيلك.

هذا ما حدث معي اليوم وأنا خارج من الصـيدلية، أدبُّ على عصــاي، وأتذكر العصفورة وبائع الحظوظ في باب الفرج....

*

على الرصيف بين مقهى الانشراح وفندق النجمة يقف إلى جانب القفص، وفيه عصفورته، وهو ينادي:

- حظك اليوم.

كان ذلك قبل خمســين ســنة أو أكثر حوالي عام ١٩٦٥، وكنت طالبا في المرحلـة الإعداديـة، أنزل من الحـافلـة في المنشـــيـة، مركز تجمع الحـافلات وانطلاقها، وأصـبح اليوم اسـمها المنشـية القديمة، لأنه تم إنشـاء منشـية جديدة، في منطقة باب الجنين، كنت أنزل من الحافلة بعد انصـــرافي من المدرســـة، وأمضـــي إلى دار الكتب الوطنية، لأقعد في قاعتها الكبيرة، وأراجع دروســي، كنت أشتري صندويشة فلافل، من محل فلافل الفيحاء، مقابل المنشية، وأشرب معها كأس عيران، وقد زالت الآن كل تلك المحلات، ثم أمضي إلى دار الكتب. ولا بد من أن أمر ببشير، وأقف أمامه، أتفرج على العصـفورة وأراقب الناس، في الذهاب والإياب، وأتسلَّى.

في بـاب الفرج المنطقـة الأكثر ازدحامـا بـالنـاس من قلـب المدينـة، اختار بشير هذا الموقع، قريبا من ساعة باب الفرج، بجوانبها الأربعة، تنهض سامقة، وهي الساعة التي تتميز بها مدينة حلب، على الطرف الأيمن تنهض دار الكتب الوطنية، حيث يرتادها كل يوم الطلاب، ليســتعيروا منها الكتب، وليجدوا في قاعتها الكبيرة مكانا للدراســة والتحضــير والمطالعة. على الطرف الأيســر يربض مخفر بـاب الفرج، حيث يتقاطر إليه كل يوم العشـــرات، لا من أجل الشكاوى والخصومات والدعاوى فحسب، بل من أجل بيان بتسجيل مولود، أو تثبيت عقد زواج، أو الإعلان عن فقدان بطـاقـة الهوية الشـــخصـــيـة. وعلى الجانبين من الشـــارع الذي يخترق المنطقة، تصـــطف المطاعم الرخيصـــة، ومحلات بيع الألبسـة الشـعبية، والحلويات، والمثلجات، والمسـجلات والأحذية والسـاعات، وعلى الرصـيف الذي يقف عليه، وعلى الرصـيف المقابل أيضـا، تزدحم بسـطات كثيرة لبيع الجوارب والألبسـة وتصـليح السـاعات، وتصـطف أمام الرصيف كثير من العربات لبيع الفاكهة والمكسرات والحلويات الشعبية.

ويعلو نداء باعة الجوارب أو قطع الحلوى الصغيرة أو العلكة أو الألبسة المستعملة، ليصكوا أسماع المارين على الرصيف، في حين يضيع صوت بائع الحظوظ بين نداءاتهم، وهو ينادي بهدوء:

- حظك اليوم.

ويمر به الناس، متزاحمين، في الرصيف الضيق، ولا يكاد يلتفت إليه إلا قليل منهم، وأكثر ما يتجمع حوله الأطفال، وهم ينظرون إلى عصفورته وهي تتقافز في القفص. وعلى يمينه يقف صديقه عزيز، وقد مد على الرصيف ملاءة سوداء، نشر عليها جوارب رخيصة، وعلى شماله يقعد على كرسي خشبي واطئ صديقه عثمان، وبين يديه حذاء لأحد رواد المقهى، يجهد في مسحه، وأمامه صندوق مسح الأحذية.

ويقف أمام القفص رجل طويل نحيل، في نحو الثلاثين من العمر، يطيل النظر إلى الأوراق المطوية، ثم يسأل:

- هل الحظ المكتوب في الورقة صحيح؟

فيرد عليه بائع الحظوظ بهدوء:

- حظك لا يعلمه إلا الله.

فيزداد فضول الرجل الطويل ، ويسأل:

- هل أسحب أنا ورقة حظي؟

فيرد البائع:

- لا، العصفورة هي التي ستسحب ورقة حظك.

على منضدة خشبية صغيرة، ذات ثلاث قوائم، بعُلُوِّ المتر يربض القفص الصغير، وأمام باب القفص يمتد صندوق خشبي صغير، رصت فيه وريقات صغيرة مطوية، تنتصب قائمة على حافتها.

وينقده الرجل خمسة قروش، فيفتح باب القفص، وينقر على الوريقات المنتصبة، فتخرج العصفورة، وبمنقارها تلتقط وريقة، يأخذها صاحب العصفورة بإصبعيه، ويناولها إلى الرجل، وترجع العصفورة إلى الداخل، بكل أمان واطمئنان. ويفتح الرجل الطويل الوريقة المطوية، ويأخذ في قراءتها، وعيناه تلتمعان، وطيف ابتسامة يلوح على ثغره، ويقف إلى جواره رجل بدين قصير مدور، كأنه الكرة، يمدُّ عينيه إلى الورقة، فلا يصل إليها، يريد قراءتها،

ولكن الرجل الطويل كان قد فرغ من القراءة، فيطويها على نحو ما كانت مطوية، ويلتفت للبائع يسأله:

- هل أردها إليك؟

فيقول له بائع الحظوظ:

- لا، هي لك، احتفظ بها.

ويسأله الرجل القصير المتطفل:

- كيف هو حظك اليوم؟

فيضحك الرجل الطويل، ويجيبه قبل أن يمضي:

- الحمد لله، العصـــفورة اختارت لي الحظ الجميل، وزادت من إيماني بالله، والتوكُّل عليه.

ويسأل الرجل القصير البدين المتطفل:

- هل الأوراق كلها مثل بعضها؟

وبهدوء يرد بائع الحظوظ:

- لا، كل ورقة مختلفة عن الأخرى، الدنيا حظوظ.

ويسأله الرجل القصير البدين:

- بكم ورقة الحظ؟

- بخمسة قروش.

ويضع الرجل القصير البدين يده في جيبه ويمضي، وهو يغمغم:

- حظي أعرفه، لا أريد خسارة خمسة قروش، أشتري فيها كأسين من السوس أبل بهما قلبي.

ويتقدم منه رجل في نحو الأربعين ويسأل:

- ماذا في الورقة؟

- مكتوب فيها حظك هذا اليوم.

- أنا لا أعرف القراءة.

- تعطيها لشخص يقرؤها لك.

يشير بيده وهو يمضي:

- سلم على العصفورة وقل لها: عمك لا يعرف القراءة.

ويؤذن لصـلاة العصـر فيُودِعُ القفص والمنضـدة بالمقهى، في المطبخ عند العمال، ويسرع إلى الصـلاة في المسـجد الصـغير القابع وراء مخفر الشـرطة، حيث دفن السهروردي.

وهو خارج من الصلاة، وعند الباب، يلتفت إليه أحد المصلين، ليقول له:

ـ عرفتك، أنت صاحب القفص والعصفورة.

_ نعم، أنا هو.

- صلاتك غير مقبولة.
- ولماذا يا أخي؟
- تحبس خلق الله في قفص ثم تأتي إلى الصـلاة! أطلق العصـفورة، أولا، ثم تعال إلى المسجد لتصلي.

صاحب العصفورة يمضي وهو يغمغم في سره:

- حسبي الله، ونعم الوكيل.

ويرجع إلى موضـــعه على الرصـــيف، يقف إلى جانب القفص، لا يأتي بحركة، ولا ينادي، ولا يتكلم.

وتقف أمامه سيدة عجوز، تتأمل العصفورة، ثم تسأله:

- ابني، هذه العصفورة للبيع؟
- لا، يا خالة.
- ولماذا وضعتها هنا على الرصيف؟
- هذه العصفورة تسحب ورقة الحظ.

السيدة العجوز تهم بالمضي، وهي تقول:

- حظي وعرفته، وما بقي لي في الدنيا أي حظ.

ولكن ما تلبث أن تلتفت إليه، وتقول له:

- ابن ابني توفي أبوه، العمر لك، وأمه تزوجت، وأنا أربيه، أريد معرفة حظه.
- حطي هنا على الطاولة خمسة قروش.
- ولماذا؟
- ثمن قنبز للعصفورة.
- ما شاء الله، عصفورة مُدلَّلة، القنبز غالي الثمن، ضع لها الخبز اليابس.

- القنبز أكلها، لا تأكل غيره.

وتمد يدها بخمسة قروش، وتهم بسحب ورقة، فيقول لها:

- لأ، العصفورة سوف تسحب الورقة.

وبخفة، يفتح باب القفص، فتهبط العصفورة، تمد رأسها من الباب، وبمنقارها تحمل وريقة مطوية، يسحبها من منقارها، ويناولها إلى المرأة.

تقول له:

- عصفورة ذكية، ما شاء الله، تستحق القنبز، سأشتري لابن ابني مثلها.

وتأخذ الورقة، ولكن ما تلبث أن تلتفت إليه:

- لكن يا بني، والله لا أعرف القراءة، خذ اقرأها لي.

ويعلق بائع الحظوظ:

- والله ياخالة، أنا مثلك، لا أعرف القراءة.

تدق صدرها بيدها، وهي تسأل مدهوشة:

- وكيف تكتب حظوظ الناس؟

- زوجتي تكتبها لي.

ويتدخل أحد الشباب، ويقول للعجوز:

- هات ياخالة، أنا سأقرؤها لك.

وقبل أن يتم الشاب قراءة الحظ، وإذ بشرطي يهجم على المنضدة الخشبية ذات القوائم الثلاث، في حين يحمل عثمان ماسح الأحذية صندوقه، ويدخل إلى المقهى، ويلم عزيز ملاءته والجوارب، ويركض.

ويلتقط بائع الحظوظ القفص، ويتوسل إلى الشرطي:

- أرجوك، والله اشتريتها بالدَّيْنِ، ما وفيت ثمنها، الأسبوع الماضي كسرت لي واحدة.

وتتدخل العجوز:

- الله يرضى عليك يا بني، اتركه يرتزق.

ويلقي الشرطي المنضدة على الرصيف، ثم يطؤها بقدمه، لكنه فيما يبدو لا يريد تحطيم قوائمها الثلاث، بل يكتفي بتحطيم قائمة واحدة، لعله أشفق على الرجل، ثم تركها له، ومضى، فمن الممكن أن يصلحها النجار، أو لعله أشفق

على حذائه العسـكري من أن يخدش. في المرة الماضـية كان قد حطمها كليا، وجمع قطع خشبها، وحملها معه، ربما ليحرقها في البيت ويستدفئ بها.

ويحمل بائع الحظوظ المنضـدة المحطمة، ويدخل بها وبالقفص إلى مدخل الفندق، يختبئ فيه. وهو يتأمل القائمة المحطمة، ويفكر في إمكانية أن يصلحها بنفسه.

وتلحق به العجوز، تسأله:

- لماذا حطمها؟
- ممنوع الوقوف على الأرصفة.
- كم ثمنها؟
- والله ياخالة، اشـتريتها بالدَّيْنِ، بخمس ليرات، هي ثمن خمسـين ورقة من أوراق الحظ، وأنا لا أبيع في يومي عشر ورقات.

وتمد العجوز يدها إلى صـدرها، تخرج كيسًـا صـغيرًا من قماش معلَّقًا في رقبتها بخيط، تفتحه بأصابع راجفة، ثم تناوله ليرة معدنية، وتقول له:

- خذ هذه ليرة، اقبلها مني.

وتهم بالمضي، ولكنها ترجع، لتسأله:

- لكن الشرطي ما رأى غيرك؟ البسطات هناك على طول الرصيف.
- واحد منهم يعطيه جوربين، والثاني يسـقيه كأس تمر هندي، والثالث والرابع، أنا ماذا سـأعطيه؟ ورقة حظ، صـديقي عثمان يمسـح بوطه العسكري، ومع ذلك لا ينجو منه، ولا يطمئن.

تمضي العجوز، وهي تدعو له:

- الله يوفقك يا بني، ويُعمي عين الشرطي عنك.

ويحمل بائع الحظوظ منضـدته والقفص، ويصـعد درج الفندق، إلى السـطح، يضـع القفص في الظل، ويبحث في أطراف السـطح عن صـندوق محطم، أو منضدة مكسورة، لا بد من أن يعثر على قطعة خشبية.

وينزل إلى الفندق، يسـتعير من المدير، مطرقة وبضـعة مسـامير، ويرجع إلى السطح، يجهد في تصليح منضدته الصغيرة، ذات القوائم الثلاث.

لا بأس، يمكن أن تقف، ستسندها إلى الجدار، لا شك أن الشرطي قد أحس بالندم لتحطيمه الأسبوع الماضي المنضدة، لقد أخذته الشفقة اليوم.

يطل على الشارع، والسيارات تغدو ذاهبة آيبة، والمشاة على الرصيفين. أمامه، على الرصيف المقابل يتألق مطعم أبو شريف، وروائح شواء اللحم تصل إليه عبر الشارع العريض، وفي واجهة المطعم علقت فخذات ثلاثة خواريف. ربع كيلو كباب مع السلطة واللبن بليرتين، وليس معه غير ليرة.

وإلى جوار مطعم أبو شريف يقبع مطعم أبو جاسم، بجدرانه البيضاء المتألقة، بشقيه الاثنين، شق على اليمين للحلويات، وشق على اليسار للكوارع ورأس الخروف، وبينهما درج من حديد حلزوني صاعد إلى السقيفة، حيث هناك بضع موائد، وفي الشق الأيسر من المطعم يقف أبو جاسم وراء حلة الكوارع والرأس، وبيده المغرفة. ناس يدخلون إلى مطعم أبو شريف، وناس يدخلون إلى مطعم أبو جاسم، لماذا لا يكون هو واحدا من بين أولئك، أو هؤلاء؟ بليرة واحدة تتناول صحنين، صحن فتة القشة، مع لحم الرأس والكوارع، وبعدها تتناول صحن بقلاوة، فيه ثلاث قطع.

ويمد يده إلى جيبه، يتحسس الليرة.

أرسل الله لي تلك العجوز، منحتني ليرة، وفي جيبي خمسون قرشا، نصف ليرة، هذا رزقي لهذا اليوم، والمنضدة استطعت تصليحها بنفسي، جبرها الله.

يترك المنضدة على السطح، إلى صباح يوم غد، لن يسرقها أحد، يحمل قفص العصفورة، وينزل على الدرج، يعيد المطرقة إلى مدير الفندق، يعيد إليه بعض المسامير التي زادت عن حاجته، ويعبر الشارع إلى بائع الكوارع.

ـ السلام عليكم

ـ أهلا بشير، بائع الحظوظ، كيف رزق عصفورتك اليوم؟

ـ الحمد لله.

ويناوله ليرة وخمسين قرشا، وهو يقول له:

- حط لي في سطل من عندك بليرة ونصف، وأكْثِرْ من المرقة.

يملأ أبو جاسم السطل ويناوله إياه، وهو يقول له:

- ملأت لك السطل بقيمة ليرتين، ولن آخذ منك غير ليرة واحدة.

يتناول منه السطل النحاسي، وهو يقول له:

- الله يرزقك، ويزيدك في الصحة والمال والإيمان، ويطوِّل عمرك.

ويمضـــي، القفص في يد، والســطل في يد، يدخل في حي الجديدة، يخترق الأزقة الضـــيقة، وهو الطريق الأقرب، ليصـــل إلى زوجته وابنته، في حي الحميدية، قبل أن تبرد المرقة.

*

مرة واحدة فقط جربت حظي، في الحقيقة، كنت أريد الاســـتمتاع برؤية العصفورة وهي تخرج من القفص، لتلتقط الوريقة، أكثر مما كنت أريد تجريب الحظ، ناولته خمسة قروش، ففتح باب القفص، ومدت العصفورة رأسها، فنقر بإصـــبعيه على الوريقات، فتناولت بمنقارها واحدة، تناولها منها، ورجعت العصـــفورة إلى الداخل، ناولني الوريقة، فتحتها، وقرأتها، وإذا فيها:"إرضـــاء الناس غاية لا تدرك، كن مع الله ولا تبالِ، اعمل الخير وارم به في البحر، ولا تنتظر الأجر"، التفتُّ إليه وقلت له:

- ياعم، هذه حكم، وليست من نوع الكلام على الحظ.

ابتسم وقال:

- صـــدقت، الحظ لا يعلمه إلا الله، وهو لا يتغير، ولا أحد يعرفه، لكن الحكمة تنفع.

علَّقْتُ، وأنا أحس بشيء من الاستياء:

- هذه يعرفها كل الناس، وأنا أحفظها، وأســـتطيع كتابة مثلها، نحن في المدرسة نكتب على اللوح كل صباح: حكمة اليوم.

ضحك وقال:

- أنت ولد ذكي، وشاطر.

تجرأت وسألته:

- سمعتك تقول إنك لا تعرف القراءة ولا الكتابة.
- نعم، هذا صحيح.
- ومن يكتب لك هذه الحكم؟
- زوجتي.
- خطها عادي.
- هي طالبة في السنة الأولى بكلية الشريعة.
- ليس عندنا بحلب كلية شريعة؟!

- في دمشق.
- لماذا لا تطبعها على الآلة الكاتبة؟
- اعتاد الناس على قراءتها بخط اليد.
- أنا أتعلم الطباعة على الآلة الكاتبة، هنا في حي العبَّارة، إذا أردتَ طبعتُها أنا لك.
- شكرا، لا أريد إتعابك.

*

كنت أمر به تقريبا في كل يوم، أو أمر به في الأسبوع عشر مرات، لأني كنت أذهب إلى دار الكتب الوطنية في الأسبوع خمسة أيام، وربما كل يوم، ما عدا يوم الثلاثاء، لأن عطلتها الرسمية في يوم الثلاثاء. وكنت أقف أمام القفص في الذهاب والإياب، أتأمل العصفورة. وأعجب كيف تخرج من باب القفص، وتلتقط الوريقة المطوية وترجع إلى الداخل، ولا تطير. ولكنني ماسمعت تغريدها. مرة سألته:

- لماذا لا تغرد.

أجابني وهو يبتسم:

- هذه أنثى، عصفورة، وفي عالم الطيور والعصافير لا تغرد الإناث، الذكور هي التي تغرد.

لا أعرف لماذا أحسست بالخيبة، هي جميلة، تمنيت لو اكتمل جمالها بالتغريد.

منقارها ناعم مُذَبَّب، تلتقط به الوريقة المطوية بحذاقة، وجهها يكسوه ريش أحمر قان، كأنها تحس بالخجل، تحيط باللون الأحمر هالة عريضة من ريش أبيض نقي، كأنها قديسة، وتلي الهالة العريضة هالة أخرى سوداء، ولكنها غير عريضة، تزيدها وقارًا، ثم يمتد الريش الأبيض إلى أسفل ليغطي صدرها وبطنها، جناحاها أسودان، يتوسطهما ريش أصفر فاقع، وكذلك ذيلها، وظهرها بني فاتح، تشكيلة رائعة، كأنها كأس مثلجات، فيه مثلجات الحليب والكرز والشيكولاته، وعيناها سوداوان، نظرتها حادة، ثاقبة، تميل برأسها، وتنظر إليك، ثم تحركه، وكأنها تكلمك، أو كأنها تقول: عرفتك. كنت أحدق في عينيها، وأحس من خلال نظرتها أنها بدأت تعرفني.

*

ذات صباح وقف أمامه رجل ضخم الجثة، طويل، له بطن واسعة ممتدة إلى أمام، أشار إلى العصفورة، وعيناه مفتوحتان بقوة، ثم قال له بلهجة الآمر:

- بعني هذه العصفورة، عندي ذكر يليق بها.

رد بائع الحظوظ بتواضع:

- ليست للبيع، أنا أعيش بفضل الله وبفضلها، هي سبب رزقي.

ضحك الرجل، مسح بطنه بيده، وقال:

- أدفع لك خمسين ليرة.

والتفَّ حولهما الناس، قال له أحدهم:

- لو كنت في مكانك لبعتها.

رد بائع الحظوظ:

- تعبت كثيرا في تربيتها، حتى علَّمْتُها التقاط الأوراق المطوية.

ضحك الرجل الضخم، وقال له:

- خذ مئة ليرة.

وقف الناس من حوله صامتين، وبائع الحظوظ يردد:

- أخي، هذه العصفورة باب رزق لي.

يضحك الرجل الضخم، ويعلق:

- خذ ألف ليرة، وأعدك بعد شهر أعطيك فرخين بدلا منها.

اشمأزت نفسي من الرجل، تركته ومشيت، اتجهت إلى دار الكتب الوطنية، أخذت مكاني وراء إحدى المناضد الكثيرة، وبدأت بتحضير درس في النحو.

ألف ليرة ثمن عصفورة؟ هي راتب مدرس اللغة العربية لأربعة أشهر، هكذا حكى لنا أستاذ اللغة العربية، يمكن أن يبيعها ويشتري غيرها بعشر ليرات، لا بألف، مرة رأيت في المنشية رجلا معه قفص فيه عشرات من هذه الحساسين الملونة، كان ينادي: "الحسون بعشر ليرات"، وأذكر أن أحد الرجال سأله: "كم حسون عندك؟"، فأجابه البائع: "كان عددها ثلاثين، بعت خمسة حساسين"، ويفتح الرجل محفظة جلدية صغيرة، يناوله وريقات نقدية ويقول له: "خذ، هذه ثلاثمئة ليرة، سأشتريها كلها"، ويتناول منه القفص، وبلمح البصر، يفتح باب القفص، ثم يطلقها كلَّها، فتطير في فضاء المنشية، تحط على

أسطح الحافلات، فوق الواقيات أمام المحلات، على أغصان الأشجار، حسون يقع على الأرض بعد قليل من التحليق، البائع يسأله مدهوشا، وهو لا يكاد يصدق، "لماذا أطلقتها، كيف ستجد طعامها، هذه لا تأكل إلا القنبز"، الرجل يرد: "أنا ذقت السجن ثلاثة أشهر، ونذرت لله إذا خرجت من السجن أن أطلق مئة عصفور"، ويضيف البائع: "ولكن هذه لا تعيش إلا في الأقفاص، ستموت"، يضحك الرجل، ويقول: "أنت لو جربت السجن يومين ما كنت سجنت هذه الكائنات اللطيفة، ومن قال إنها لا تعيش إلا في القفص؟!"، ويهم البائع بالمضي، وهو يحمل القفص الفارغ، ولكن الرجل يلحق به، ويضع يده على كتفه، فيلتفت إليه، فيقول له: "هل تبيعني القفص؟"، الرجل صاحب القفص يحضن القفص إلى صدره، يتشبث به، ويوليه ظهره، وهو يغمغم: "عرفت قصدك، لا أبيعك القفص، ولا بألف".

لا أعرف لم أعد أستطيع التركيز ولا أفهم ما أقرأ، أطوي الكتاب، أضعه في الحقيبة، وأغادر المكتبة الوطنية، قاصدا إلى المنشية كي أعود إلى البيت، وأمر ببائع الحظوظ، فأجد العصفورة ما تزال في القفص، أتشجع فأقول له مؤيدا:

- ما قَدِرَ الرجل على شرائها منك.

ويرد مبتهجا:

- والله لا أبيعها ولو بألفين، هذه حياتي، أنت لا تعرف، أنا وزوجتي تعبنا حتى علمناها، وهي من عمر ابنتي دلال، صار عمرها خمس سنوات، ربيت معها، وفي البيت تقف على كتفها، وتأكل من يدها، وتضم زوجتي كفيها على شكل حوض تحت الحنفية فتحط على يدها، لتستحم وتسبح.

ويصمت ثم يسألني:

- في أي صف أنت؟
- في التاسع.
- قلت لي مرة إنك تستطيع كتابة مثل هذه الحكم، زوجتي ستسافر إلى دمشق لتقدم امتحان الجامعة، ما رأيك بكتابة بعض الحكم؟ يمكنك نقل

بعض الحكم المكتوبة على أوراق التقويم، خمس سنين وأنا في هذا العمل، لو أعرف القراءة والكتابة كنت كتبت أشياء جديدة.

ويصمت، ثم يضيف:

- سأعطيك ليرة عن كل خمسين حكمة.

تلمع الفكرة في ذهني، أستاذ اللغة العربية، يقول لي دائما: "أنت ستصبح كاتبا، أسلوبك جيد، وعندك أفكار ناضجة". أرد:

- تكرم يا عمي، أنا سأكتب لك مئة حكمة، ولن آخذ منك ولا ليرة، وسأطبعها لك على الآلة الكاتبة. ويمد يده إلى جيبه، يخرج بضع وريقات مطوية، ويقول لي:

- خذ هذه بعض الحكم، اكتب مثلها.

وأرد بشجاعة وقوة:

- لا أريد، أنا قرأت كتب المنفلوطي، وجبران خليل جبران، وعند كل واحد حكم كثيرة.

ويعلق:

- أريد الحكم البسيطة.

*

ويمر يومان، في اليوم الثالث، أحمل إليه أكثر من خمسين حكمة، طبعتها على الآلة الكاتبة، وقصصتها، وطويتها عدة طيات، ووضعتها في حقيبتي، وأسرعت إليه.

أمام القفص وقفت مبهوتا، دهشت، نظرت إليه، تكلم ببطء والغصة تملأ حلقه، دمعت عيناه، بدأ الكلام:

- هل تذكر الرجل الضخم وعرضه شراء العصفورة بألف ليرة؟

- نعم

- عينه صيَّابة.

- ماتت العصفورة؟

- لا

- أكلتها قطة؟

- لا، في نفس اليوم، وبعد ذهابك بقليل، جاء رجل وأعطاني خمسة قروش، وفتحت باب القفص، كالعادة، ومرت فجأة شاحنة كبيرة، وأطلقت زعيقًا من بوقها العريض، وطارت العصفورة.
- وما أمسكتها؟
- وقفت على الشرفة، في الفندق، صعدت إليها، وفور وصولي طارت، باتجاه الرصيف المقابل، حطت على الواقية فوق المطعم، قطعت الشارع، بين السيارات، ولكنها طارت، وغابت عن الأنظار.
- وما ستفعل؟
- من يومين وأنا هنا، أنتظر عودتها، سترجع، لا تستطيع العيش خارج القفص، من أين لها القنبز؟ كل ما أخشاه أن تقع على الأرض فتلتقطها قطة، أسأل الله أن يلتقطها رجل يحب الحساسين، فيضعها في قفص، ويكرمها.

أخرجت من حقيبتي الأوراق المطوية، وناولته إياها، أخذها، دسها في جيبه، وقال:

- أشكرك.

صمتُّ، ثم سألته:

- هل يمكن تدريب غيرها؟
- صعب، سنة كاملة دربتها أنا وزوجتي.

ويقف رجل يسأل:

- أين العصفورة؟ أريد معرفة حظي اليوم.

يرد بائع الحظوظ:

- اسحب ورقة بيدك، حظك تختاره بنفسك.

الرجل يدير ظهره ويمشي، بائع الحظوظ يعلق:

- الناس اعتادوا على العصفورة، ما عدت أحصل في اليوم نصف ليرة.

*

بعد بضعة أيام أمر به، كالعادة، فأرى فتاة صغيرة تقف إلى جانبه، في نحو الخامسة من العمر، نحيلة، شقراء الشعر، لا تشبه والدها، أسأله:

- هي ابنتك؟

- نعم، ابنتي دلال، وهي ستسحب وريقة الحكمة.

أعلق:

- فكرة جيدة، سـميتها وريقة الحكمة، هي أصـدق، وأدق، كيف خطرت على بالك فكرة عمل ابنتك بدلا من العصفورة؟.

يبكي، يمسح دموعه، يتكلم وهو يغص بالكلام:

- ليست فكرة، ولم تخطر على بالي، ولكن اضطررت إليها.

وتنهمر الدموع من عينيه، ويتكلم بصعوبة:

- هي ابنتي الوحيدة، ولا يمكن تركها في البيت وحدها.

أعلق سائلًا:

ـ أمها في دمشق تقدم امتحان الجامعة؟

يمسح الدموع، يتكلم بصعوبة:

ـ لم تصل إلى دمشق، انقلبت بها الحافلة، ماتت.

*

موضعه في باب الفرج بين مقهى الانشراح وفندق النجمة ما يزال قائما، لم أزره منذ سـنوات وسـنوات، ولكن لا أظن أني سـأجد فيه بائع الحظوظ ولا القفص ولا العصفورة.

ولكن ـ اليوم، وبعد مضي أكثر من خمسين عاماـ ما أزال أذكره، ولا يمكن أن أنسـاه، ولا بد أن يذكره كل من عرفه، ولا بد أن يكون قد عرفه كل من عاش في تلك المرحلة من أهل حلب.

أم جميل وأبو جميل ينزلان معاً إلى حديقة السبيل، يمرَّان أمام اللوحة المتأرجحة فوق الصيدلية المغلقة، أم جميل تعلِّق:

ـــ منذ ثلاثة أشهر، في أول نزولنا في الشقة الجديدة، هنا المطلة على حديقة السبيل، رأينا اللوحة وهي عالقة بمسمار واحد، يؤرجحها الهواء، حتى الآن لم تقع، والصيدلية مغلقة.

أبو جميل يتكلم:

ـ لعلها تنتظر رصاصة طائشة.

عند باب الحديقة يعترضهما عجوز يمدّ لهم يده اليسرى بالسؤال، يده اليمنى مقطوعة عند الرسغ، موضع القطع ظاهر، حيث يظهر الجلد المتجعد، وهو يحسر القميص عن يده، أم جميل تفتح حقيبتها، تضع في يده اليسرى مبلغاً ما. في مدخل الحديقة، وعلى الرصيف، تقعد صبية دون الثلاثين، تفرش منديلاً تناثرت فيه بضع ليرات معدنية، وفي حضنها وليد نائم لا يزيد عمره عن بضعة أشهر، وثديها مدلوق من فتحة ثوبها.

أم جميل تناولها ورقة نقدية، تضعها بين طيات ثوب الوليد، بعد أن يتجاوزاها، تقول أم جميل لزوجها:

ـ بالله عليك قل لي: ماذا تجد أنت وصديقك أبو وائل في حديقة السبيل، لا بد كل يوم من النزول إليها؟

ـ لا نجد غير الشيوخ والعجائز من مثلنا.

ـ وما هذه الصداقة التي نشأت فجأة بينك وبين أبو وائل، كأنك تعرفه من مئة سنة، ولم يمض على مجاورتنا له في العمارة غير ثلاثة أشهر؟

ـــــ أنا عجوز، وهو عجوز مثلي، والرجل طيب، وأنا انقطع عني كل أصدقائي، وأنا انقطعت عنهم، تكلمنا من قبل على هذا الموضوع، لا أريد تكرار الحديث عنه، ولا تنسي، أنت أيضاً، بسرعة كبيرة أصبحت أم وائل كأنها صديقتك من ألف سنة، لا مئة، وتذكري، ظروف الحرب التي نعيشها، أين سأذهب؟ حديقة السبيل هي الأقرب إلينا.

وقبيل وصـــولهما إلى البركة ترى على الطرف الأيمن بائع دمى وألعاب للأطفال، فرش بها الأرض، وعلى الطرف الأيسر ترى أكثر من عشر أراكيل كرستالية فاخرة وأخرى معدنية متألقة وإلى جانبها منضدة صفت عليها علب المعسل بأنواعه المختلفة، وثمة شاب أمام موقد فيه جمرات من الفحم حمراء تشع باللهب.

أم جميل تتأمل المشهد مدهوشة، والشاب يلح عليهما بالنداء:

ـ أركيلة خانم، أركيلة أستاذ، أطيب معسّل بالتفاح والكرز.

عندما يصبحان أمام البركة تضع يدها على صدرها، وتهتف:

ـ يا إلهي، هذه هي البِرْكة؟

أبو جميل يقول:

ـ نعم هذه هي البركة، ماذا حصل؟

ـــ كم كانت جميلة، رقيقة المياه شفافة، أرضها مفروشة بالسيراميك الأزرق الفاتح، الماء فيها بلون السماء، وفي الوسط نافورة صغيرة، يتقافز الماء منها ويسقط مثل المطر الخفيف، كانت حافاتها واطئة وهي من حجر أصفر أملس ناعم كالمخمل، لا أرى الآن سوى الحفائر في أرضها، وحافاتها مكسرة، وفي وسطها أنابيب رفيعة وأخرى ثخينة كأنها أوردة وشرايين أو أمعاء مدلوقة.

أبو جميل يعلق:

ـــ أنا رأيتها هكذا من أربعة أشهر، من أول بحثي عن شقة لنا في هذه المنطقة، دخلت إليها، فرأيتها على هذا الوضع، الإدارة تجري فيها تصليحات، قبل عدة سنوات جهزت بمضخات وصمامات ونوافير تعمل بمصاحبة الموسيقى، لكن تعطلت، هذه الآن تصليحات.

ـــ وهل تسمي هذه تصليحات؟ ومنذ أربعة أشهر ما انتهت التصليحات؟ وأين العمال؟

ـ والله أنا يا أم جميل ما تنبهت إلى هذا كله، لا أنا ولا أبو وائل، قلنا لاشك هناك خطة للتصليح، ولابد سوف تُنَفَّذ اليوم أو غداً.

ـ هذا تدمير يا أبو جميل، لا تصليح، وفي ظني هو بفعل قذيفة، أو قذائف.

أبو جميل يشير إلى أحد المقاعد، ويتكلم:

ـــــ أنا أقعد هناك دائماً على هذا المقعد فوق الهضبة، وهو يشرف على حديقة السبيل، وأرى أمامي الإيوان بأعمدته الرخامية، والأولاد يلعبون داخله، وكل ولد ينادي ويصيح، ويتردد صدى أصواتهم، هو أجمل مقعد في الحديقة، ومن مكاني فيه أرى شـــرفة بيتنا، ولكن يقعد الآن مقعدي المألوف شـــاب مع خطيبته.

أم جميل تشير إلى مقعد آخر، فيتجهان إليه، ويقعدان عليه.

أبو جميل يشير إلى لوحة معدنية صغيرة، مثبتة بوساطة قضيب معدني فوق العشب، ويقول لأم جميل:

ـ اقرئي المكتوب على اللوحة.

ـ "ممنوع الجلوس فوق العشب".

ـ ما ملاحظتك؟

ـــــ ملاحظتي؟ لا أرى العشب، أرى القش الأصفر اليابس، وأرى الرجال والنساء جالسين فوقه.

ـــــ لم تلاحظي الخطأ في التعبير، الصواب: ممنوع القعود فوق العشب، فعل جلس يســـتعمل مع مَنْ هو متكئ، أما قعد، فيســـتعمل مع من هو واقف، فيقال قعد.

أم جميل تضحك، وتعلق:

ـــ أضحكتني، وإن كنت غير مشتهية الضحك، نسيت خطأ البشر بقعودهم وجلوسهم ومشيهم فوق العشب، ولم تلحظ غير هذا الخطأ اللغوي، وما هو في الحقيقة خطأ، وألف مرة قلت لك: دلالات الألفاظ تتطور بالاستعمال، وعلى كل حال، هم لا يجلسون على العشب، هم يجلسون على قش أصفر يابس، أنا أعرف، أنت تريد استفزازي والتفاصح علي.

ـــ لا والله، يا أم جميل، أردت مداعبتك وتسليتك، عن أي شيء سنتحدث؟ هل أحكي لك عن نابليون بونابرت وكليبر وسليمان الحلبي؟

ـ لأ، أرجوك، مللت حديثك عنهم.

وتصمت ثم تضيف:

ـ هل تعرف، يا أبو جميل، ربما من عشر سنين لم أزر الحديقة، أو أكثر، قبل أزمة الحرب التي نمرّ بها، أي قبل عام ٢٠١٢ ومر ثلاثة أشـــهر، ونحن نسكن بجوار الحديقة، والحديقة أمامنا، وما نزلت إليها.

ـ وكيف رأيتها؟

ـ تغيرت.

ـ للأفضل؟

ـ لأ، لأ، ما لاحظت من كلامي؟ واضح.

ـ ولكن أنا لا أرى أي شيء من السوء فيها؟ المقاعد زادت، والأشجار هي الأشجار.

ـــ يا إلهي، كانت حديقة السبيل غير ما هي عليه اليوم، ما توقعت رؤيتها على هذا الشـــكل، كانت كبيرة، وأحس باتســـاعها ورحابتها، اليوم أحس بها صغيرة، صغيرة وخانقة، وماهذا الزحام؟، كأننا في يوم عطلة أو عيد، أو كأن المدينة ضربها زلزال فنزل الناس كلهم إلى الحديقة.

ولد دون العاشـــرة يقف أمام أم جميل، ينظر إليها، عيناه جامدتان لا تطرفان، طرف فمه مائل، يشير إلى أم جميل بيديه، تدرك أنه أبكم، تفتح حقيبة يدها، تناوله قطعة سكر، يتناولها بأصابع راعشة، ثم يركض.

أم جميل تتكلم:

ـــ من الغريب انتشار الأراكيل، حتى بين الشبان والصبايا، فور دخولي الحديقة شممت رائحة المعسِّل، الإنسان يأتي إلى الحديقة ليملأ رئتيه بالهواء النقي، لا بدخان الأركيلة، ولا حظ معي تسريحات شعر الشباب، حقيقة شيء مقرف، لا ذوق ولا جمال، الواحد منهم طول وجهه ثلاثة أشبار، ويرفع شعره إلى فوق شبرين.

أبو جميل يتكلم:

ـــ والله أنا شاهدت هذا، ولكن ما أثار اهتمامي، وما أحسست بشيء، على كل حال، كل عصر له زيه في الثياب وتسريحة الشعر، وهذه كلها أمور شكلية وتتغير.

ـــــ وفي الأرض وعلى المرج وتحت المقاعد زجاجات الماء الفارغة والمناديل الورقية وأعقاب السكائر وعلب السكائر والأوراق، ماهذا؟ لا نظافة

ولا عناية؟ وأكثر ما أزعجني تجوال باعة القهوة في أرجاء الحديقة؟ لا أعرف هل تُشرب هذه القهوة؟

وتصمت، ثم تسأل:

ــ هل تذكر كيف كانت حديقة السبيل؟ أنا أذكر يوم اصطحبني والدي معه إلى حلب، وكنت في العاشــرة، أخذني إلى الطبيب، وبعدها جاء بي إلى حديقة السبيل، كان هناك في الطرف الشرقي مهجع حجري جميل للغزلان

أبو جميل يقاطعها، يعلِّق ممازحاً:

ـ ما شاء الله، زوجتي مدرسة اللغة العربية ولا تعرف اسم بيت الغزلان.

ـــ أرجوك أبو جميل، أنت كلما رأيتني متوترة طاب لك المزاح، أعرف، هو كِناس، ولكن ســأقول حظيرة، مهجع، بيت، ســأقول قصــر الغزلان، هل يعجبك هذا؟.

ـ هذا من حقك، فأنت مدرسة اللغة العربية، ولكن المعاجم لا تسمح لك ولا مجمع اللغة العربية.

ـــ مرة ثانية، أنت جعلتني أضحك، وأنا غير مشتهية الضحك، أنا أسألك: هل نستعمل اللغة كما يقول المعجم؟ وأي معجم؟ عد إلى لسان العرب، ستجد بعض الكلمات لها عشـــرات المعاني، بين حقيقة ومجاز ومعنى قديم ومعنى متطور، نحن نســتعمل الألفاظ بمعانيها المتداولة، لا بمعانيها المعجمية، ونستعمل الألفاظ وفق حالتنا النفسية ووفق انفعالنا، وفق الموقف ووفق المقام، بل وفق المعنى الذي نريد، ونحملها مشــاعرنا وعواطفنا وانفعالاتنا، حتى معناها يختلف وفق النبرة ووفق السياق.

أبو جميل يقاطعها:

ـ شكراً يا أم جميل، شكراً، أنت أعطيتني درساً في اللغة، وأثبت لي حقيقة عن جدارة: أنت مدرِّسة اللغة العربية.

ـ أنت ورطتني، وأنا اندفعت

وتصمت، ثم تتكلم كمن يتابع حديثاً انقطع:

ــ كان هناك قصر للغزلان، هل يعجبك هذا؟ مبني بالحجر الأصفر، على شكل دائري، ومحاط بسور من الدرابزين الحديدي المزخرف، وكان فيه أربع

غزالات أو خمس، جننت لما رأيتها، وكان في الطرف المقابل قفص حديدي كبير للطواويس.

وتصمت، تلتفت إلى زوجها، تسأل ممازحة:

ـ وهل تريد أي اسم آخر غير القفص؟

أبو جميل يفكر، ثم يعلق:

ـ هو قفص كبير، أنا سأسميه قلعة.

أم جميل تتكلم:

ـ وقفت مع أبي أمام قصر الطواويس، ننتظر من الطاووس فتح ذيله، ولما فتحه أدهشني المنظر، كم أحببته، ولا أنسى، أحد الأشخاص كان يريد نتف ريشة من ذيله، ولا أعرف، بعد ذلك وجدت في بيتنا بعفرين ثلاث ريشات لطاووس، حزنت، سألت أبي: هل نتفتَها أنت من ذيل الطاووس بحلب؟ قال: لأ، يا بنتي، اشتريتها من بائع، ولكن، بصراحة، لم يعجبني صوت الطاووس، أنت ابن حلب، تذكر هذا أفضل مني.

أبو جميل يتكلم:

ـ أنا كنت أحب الطاحونة الهوائية في مدخل السبيل، وهي مركَّبة على بئر لسحب الماء منه، وبعدها قرأت عن حديقة السبيل، في إحدى الموسوعات، الحديقة يا أم جميل ترجع إلى عام ١٨٩٦ أنشئت في الأصل خارج مدينة حلب في عهد الوالي العثماني رائف باشا، ثم جرى توسيعها في عهد محافظ حلب الأمير مصطفى الشهابي، وتم افتتاحها في شهر شباط عام ١٩٤٦ مع استقلال سورية.

أم جميل تتكلم:

ــ أنت كل همك التاريخ، ذاكرتك تاريخية، أنا ذاكرتي جغرافية، أنا أتذكر دائماً الأماكن التي زرتها، وخاصة في صغري، لا أنسى مثلاً الغزالات، ولا أتوقع اليوم وجود غزالات، وربما خرب مهجعها كِناسها قصرها، والله ماعدت أعرف أحكي.

أبو جميل يضحك، ويعلق:

ـ قصر الغزالات موجود، وهو هناك، أصبح الآن حظيرة تُرَبَّى الآن فيها الأرانب، وقلعة الطواويس موجودة، ولكن هي الآن مجرد قفص يعيش فيه قرد، انظري، الناس يتجمعون حوله، هل نذهب للفرجة عليه؟

أم جميل تضحك ساخرة:

ـ بعد طائر الطاووس تريدني أتفرج على القرد؟

ـــ وهناك في الإيوان المسقوف، حيث يلعب الآن الأولاد ويتصايحون، كانت الفرقة الموسيقية تأتي صباح يومي الجمعة والأحد لتعزف موسيقا يتردد صداها في أرجاء الحديقة، وما كان يسمح بدخول الباعة ولا المتسولين ولا العربات.

أم جميل تعلق:

ــ هذا اسمه، فيما أظن، يا أبو جميل: الشاذروان، لا الإيوان، الإيوان، هو غرفة في صدر الدار مسقوفة ولها ثلاثة جدران فقط، تكون مفتوحة على فناء الدار، ويقع على كل جانب منها غرفة، هذا هو الإيوان، وكما نسميه نحن: الليوان، أما الشاذروان فهو بناء مدور مفتوح من أطرافه كلها ومحاط بأعمدة تحمل السقف.

أبو جميل يعلق:

ـ أحسنت، يا أم جميل، الآن أثبت مرة ثانية وعن جدارة أنك مدرسة اللغة العربية.

ـ للأسف، كلامنا النظري على اللغة، أفسد علينا استمتاعنا بالواقع الحقيقي الذي نعيشه.

ـ لا يا أم جميل، لا، لا تقولي هذا، اللغة زادت من متعتنا وأكسبتنا معرفة، اللغة تمنح المدركات قوة الحضور، وتزيد من الوعي، وترفع درجة التوتر والإحساس.

أم جميل تسرح في الكلام:

ــ على كل حال أنا لا أنسى يوم زرنا حديقة السبيل أنا وأنت أيام الخطبة، ما كان أحلاها من أيام وما أحلاها في تلك الأيام من حديقة، ثم زرناها في الأيام الأولى من زواجنا، وأنا لا أنسى قعودنا على حافة البركة، وجاء المصور والتقط لنا عدة صور، لا أنسى، كانت حافة البركة كما قلت لك ناعمة

كالمخمل، أحس الآن بالأشجار شاخت، ومن باب الحديقة حتى مقعدنا هنا، ما رأيت قطعة مرج أخضر، العشب كله أصفر يابس، ونحن في نيسان، لا في الصيف، ولا رأيت أي مساحة ولو صغيرة من الورود أو الزنابق أو الأزهار، نحن الآن في موسم الورد، كل ما رأيته أكياس النايلون السوداء والبيضاء، وعلب السكائر الفارغة والشباب يفترشون العشب الأصفر ويلعبون بورق الشدة، وفي أياديهم خراطيم الأراكيل.

أبو جميل يعلق:

ـــــ شعبنا متخلف، لا يقدِّر الحديقة ولا الورد، يدوس فوق العشب ويقعد عليه.

ـ لا، شعبنا غير متخلف، مؤسف هذا الإهمال، الإدارة تتحمل المسؤولية، لا تتهم شعبنا يا أبو جميل، الإدارة هي المسؤولة، لو وضعت سلات للمهملات، لو منعت الباعة من الدخول إلى الحديقة، أين الحراس، أين عمال النظافة؟ الحديقة بحاجة إلى مهندسين زراعيين يعنون بالأشجار والعشب والزهور، بحاجة إلى حدائقيين مختصين، أين الإدراة؟ أرجوك، لا تتهم شعبنا، والله لو توافرت للحديقة إدراة حقيقية صادقة مخلصة تحب العمل وتتابع الأمور، لرأيت الحديقة مثل الجنة.

أبو جميل يرد:

ـ هذا كله غير صحيح، شعبنا هو المسؤول، سأحكي لك، لتقتنعي، مررت مصادفة أنا وأبو وائل أمام قفص القرد، أكثر الذين تجمعوا أمامه للفرجة عليه كانوا من الصبايا والنساء، وأصوات الضحك تعلو، احزري ما هو سبب ضحكهم؟

ـ كان القرد يقلد.

ـ القرد كان كان كان...ماذا أقول لك: كان يلعب بعضوه.

أم جميل ترد بحزم:

ـــــ مع ذلك، أنا أحمل الإدارة المسؤولية، لو وضعوا في القفص طائر الطاووس؟ أما كان أجمل؟ أو على الأقل: لو صنعوا قفصين ووضعوا في هذا القرد وفي الآخر طائر الطاووس.

ـــ أنا متأكد، لو وضعوا قفصين في الأول الطاووس وفي الثاني القرد، لرأيت أكثر الناس متجمعين أمام القرد، ولما وجدت أمام الطاووس إلا القليل.

ـ هذا طبيعي يا أبو جميل.

ـ كيف هو طبيعي؟ هذا فساد في الذوق.

ـ لأ، يا أبو جميل، كل الناس يمكنهم الضحك، لكن لا يستطيع تأمل الجمال إلا قليل منهم.

ـ غير معقول؟

ـ الطاووس جميل، والجمال يحتاج إلى تأمل وطول تفكير وهدوء، يحتاج إعمال العقل، وهو عملية فردية، أما القرد فهو مضحك، والضحك عملية بسيطة سريعة يستجيب لها الكبير والصغير، ولا يحتاج الضحك إلى تأمل وتفكير، والضحك بطبيعته عمل جماعي، صدقني النكتة نفسها إذا سمعها فرد وحده لا يضحك بقدر ما يضحك إذا ماسمعها مع جماعة ورأى الجماعة كلها تضحك.

أبو جميل يتكلم بلهجة مختلفة:

ـ دعينا من هذا كله، سأنادي البائع، لنشرب فنجان قهوة.

ـ لا والله، لا أذوقها، رأيت بائع القهوة في مدخل الحديقة، ورأيت أصابعه المتسخة وأظفاره الطويلة، يا إلهي، كيف يشرب الناس مثل هذه القهوة، حتى رائحتها زكمت أنفي، أنا كرهت كل شيء في الحديقة.

أبو جميل يتكلم:

ـ والله، كنت أمر بكل هذا وأراه، ولكن ما فكرت فيه.

ـــ وهذا هو الفرق بين رأى وأبصر، أو هو الفرق في الحقيقة بين العيش في الواقع، والوعي به، كثير من الناس يعيشون في الفقر وفي الجهل وفي الظلم، ولكنهم لا يحسون بالفقر ولا بالجهل ولا بالظلم، وما أحوجنا إلى الوعي.

وترسل زفرة، ثم تتكلم:

ـ وياليت الحديقة وحدها تغيَّرت نحو الأسوأ، كل شيء يسير نحو الأسوأ، الدنيا كلها تغيرت، إذا كانت حديقة السبيل وهي أجمل مكان في حلب، صارت إلى هذه الحال، فكيف حلب؟.

ـ يا أم جميل، الدنيا بخير، تفاءلي.

ويمر ولد في العاشــرة حافي القدمين متســخ الثياب يحمل مجمرة معدنية فيها قطع فحم صــغيرة تتوهج، يمضــي ليوزعها على الأراكيل المنتشــرة في أرجاء الحديقة.

أم جميل تتكلم:

ـــ انظر، انظر، أي تفاؤل تدعوني إليه؟ هذا الطفل مكانه في المدرسـة، يلعب ويتعلم ويســمع الموســيقى، ترى هل يعرف فيروز؟ هل يحفظ النشــيد الوطني؟ هل يذهب إلى المسجد؟ أي مستقبل ينتظره؟ أي مستقبل ينتظر البلاد كلها؟

ـــ يا أم جميل، نحن جئنا إلى الحديقة لنتسلى، ولنستريح، لا لنضع هموم الدنيا كلها فوق رأسنا، قومي حتى نرجع إلى البيت.

أم جميل تنظر في ساعة يدها، تعلق:

ـ الحقيقة، ضاقت بي روحي، فقلت نذهب إلى حديقة السبيل لنستريح، ما توقعت رؤيـة هذه المشـــاهد المزعجة، هذه ما هي حديقة الســـبيل التي كنت أعرفها أيام زمان.

يمر صمت ثقيل، يتكلم أبو جميل:

ـ شقتنا خمس غرف، والشرفة مطلة حديقة السبيل، وعلى على حلب كلها، وضـــاقت نفســك؟ أنت عندك شـــيء أزعجك، ما هي مســـألة حديقة ونظافة وتسريحة شعر، أنت عندك موضوع آخر، احكي، صارحيني.

ـــ يا أبو جميل، نحن في حالة حرب منذ أربع سنوات، وأرى الناس في المقاهي والمطاعم والأســـواق وعند باعة الذهب وفي المحلات التجارية، كل همهم أحدث الأزياء وآخر المسلسلات ومسابقات الغناء والأراب أيدول، طموح كل شاب هو الغناء والظهور في التلفزيون، كأنه لا شيء يجري من حولهم؟.

أبو جميل يتكلم:

ـ يا أم جميل، الحياة أقوى من الموت.

ـ لأ، هذا غير صحيح، هذه ما هي الحياة.

تنهض مستاءة، ينهض في إثرها، يرسل زفرة، يتكلم:

ـ أنا مثلك، أسمع، وأرى، وأحس، وأعيش، ولكن ماذا نفعل؟.

ـــ كأننا قبل يوم القيامة، كأن الساعة اقتربت، كأن الناس لا يعرفون الله، كأنهم ينكرون وجوده، فهم يفعلون كل ما يحلو لهم، ماذا أقول؟.

أبو جميل يتكلم:

ـــ لأ، لا أحد ينكر وجود الله، كلهم يؤمنون بالله، وكلهم يعرفونه، ولكنهم ينسونه، تذكري قوله تعالى:"نسوا الله فأنساهم أنفسهم".

ـ وماذا سنفعل؟

ـــ لن نفعل أي شيء، نرجع إلى البيت، نطمئن عليه، قبل ما تسقط فوقه قذيفة، الحمد لله، لقد وفقنا بشراء هذه الشقة المطلة على حديقة السبيل، لم يمض على شـرائنا لها ثلاثة أشـهر، حتى تضـاعف ثمنها، الآن بثمانية ملايين لا نستطيع شراء مثلها.

أم جميل تعلق:

ـــ هل تعرف يا أبو جميل، كان علينا شراء شقتين، واحدة بغرفتين، لي ولك، وأخرى لولدنا جميل، بأربع غرف.

أبو جميل يضحك، ويتكلم:

ـــ هل نسيت يا أم جميل، نحن طول عمرنا، ما استطعنا شراء شقة، أمضـينا حياتنا في من دار بالأجرة إلى دار بالأجرة، أنا تقاعدت، وأنت على وشك التقاعد، راتبي وراتبك للأكل والشرب والدواء ولا أكثر، لكن الحمد لله استطعنا تربية ولدنا جميل، والله وفقه، وتخصص بالجراحة العامة، ولولا عمله بعد التخصص خمس سنين في إسبانيا، ما كنا استطعنا شراء هذه الشقة.

أم جميل تعلق:

ـــ أنا قصدي يا أبو جميل، لو أننا اشترينا بالملايين الأربعة التي أرسلها هو إلينا، شقة صغيرة بمليون، وشقة أكبر بثلاثة ملايين له، مثلما قلت، والله لولا جميل، الله يحميه، ما قدرنا على شراء غرفة.

أبو جميل يضحك:

ـ يا أم جميل، لا يوجد شقة بمليون، ولا في آخر منطقة في شرق حلب.

ـ أنا أفكر، هل يمكن أن نفرح بجميل، ونزوجه، وتعيش زوجته معنا في نفس الشقة؟

أبو جميل:

ـــ جميل لن يتزوج فور وصوله، سيعمل سنتين أو ثلاث سنوات، اختصاصه مطلوب، وكل المستشفيات تنتظره، في سنتين، يشتري لنا شقة صغيرة، ونترك له هذه الشقة.

أم جميل ترسل زفرة، وتضيف:

- كلما كلمته بالهاتف يقول لي: عودتي اقتربت، هل يخفي عني موعد عودته.

أبو جميل يتكلم:

- سيرجع نهاية هذا العام، بعد شهرين، في مطلع عام ٢٠١٧.

أم جميل تلقي نظرة شاملة على حديقة السبيل، ثم تتكلم:

ـــ في الحقيقة، الإطلالة على حديقة السبيل من الشرفة في شقتنا، ورؤيتها من بعيد أجمل من الدخول إليها، والتعرف عليها من قرب.

ـ هذا هو قانون المعرفة، خذي التاريخ مثلاً، إذا نظرنا إليه من بعيد نظرة شاملة، رأينا التطور العلمي والتقدم الحضاري، وإذا اقتربنا منه أكثر، وقرأنا التفاصيل رأينا كل ما هو غير سار، أنا مللت، أريد العودة إلى البيت، مثلما قلت: الإطلالة من الشرفة على حديقة السبيل أجمل.

أبو جميل يمسك بيد أم جميل، ينهضان معاً، ويسيران متجهين نحو البيت.

أم جميل تتكلم:

ـــ تعال لنخرج من الباب الشرقي من الحديقة، أريد الفرجة على رأس السبع والماء ينصب من فمه، عندما زرت الحديقة وأنا طفلة مع أبي كما حدثتك، حملني أبي، ووضع فمي تحت فم السبع وقال لي: اشربي، كنت خائفة، لم أشرب.

أمام السبع تقف أم جميل ذاهلة، تعلق:

ـــ يا إلهي، ماء آسن، روائح كريهة، العفن الأسود والطحالب الخضراء تعلو وجه السبع، الديدان تملأ فمه، ما هذا؟ عجِّل بنا، يا أبو جميل، عجِّل.

تجذب يد زوجها، وتعلِّق:

ـــ ليتنا خرجنا من الباب الرئيسي، المرور تحت اللوحة المتأرجحة أمام الصيدلية المغلقة، خير من المرور أمام رأس السبع المتعفن.

ـ وأنا لا أعرف متى ستسقط تلك اللوحة المشؤومة.

ـ تحتاج إلى نفخة ريح.

ـ أو إلى رصاصة طائشة، كما قلت أول دخولنا إلى حديقة السبيل.

ويصك سمع كل من في حديقة السبيل فحيح يملأ السماء، ويدوي انفجار.

ويقف الناس في حديقة السبيل ذاهلين، يحدقون بأبصارهم نحو الجهة الشمالية، صوب دوَّار الدلة، حيث يتصاعد دخان كثيف تتراءى في وسطه ألسنة اللهب. أم جميل وأبو جميل يقفان مبهوتين، الحريق وألسنة اللهب تتصاعد، وصوت سيارات الإطفاء يملأ الفضاء.

ويصيح أبو جميل:

ـ يا إلهي، هذه شقتنا تحترق.

خرج من غرفته يجر حقيبته على البساط الأحمر في ممر الطابق الخامس، المصعد كان بانتظاره، العامل العجوز جرَّ الباب الشبكي إلى جانب، حياه:

- بونجور مسيو.

أغلقَ العامل العجوز الباب الشبكي بجرَّةٍ من يده، ثم أدار القاطع الكهربائي نحو اليمين، وبدأ المصعد بالهبوط.

- كم عمر هذا المصعد؟
- لا أعرف، منذ بناء فندق سفير، أكثر من مئة سنة، أنا ورثت العمل عليه من أبي.

وصل المصعد إلى الدور الأرضي، أدار العامل العجوز بيد خبيرة القاطع بهدوء نحو اليسار، توقف المصعد.

توجه إلى الاستقبال، أودع حقيبته، وهو يقول للعامل:

- سيأتي المرافق مع السائق لأخذها.

ويعلق عامل الاستقبال وهو يناوله جواز السفر:

- كنا نتمنى لو كانت إقامتك أطول.
- في زيارة قادمة.
- نرجو أن تكون قريبة.

ناوله قطعة نقد ورقية، وهو يقول:

- أنا في المطعم.
- صحة.

في المطعم المخصص للإفطار، اختار من المائدة المفتوحة إفطاره، كعادته في بيته كل صباح، أخذ يبحث بين الموائد المكتظة بالنزلاء عن مائدة فردية يقعد إليها، لن يجد مائدة فردية، الموائد كلها لأربعة أشخاص أو لستة، قليلة هي الموائد التي لاثنين، وقعت عيناه في عمق المطعم على مائدة صغيرة لاثنين إلى جوار النافذة الزجاجية الكبيرة، المشرفة على الشارع المطل على البحر، اتخذ مكانه وراء المائدة، أمامه على المائدة مزهرية، فيها زهرات توليب، حمراء قانية وبيضاء

ناصـعة، النوارس تحط على السـور الحجري العريض، وتلتقط فتات الخبز، والسماء تسبح فيها غمامات خريفية، ينظر إلى الكرسي الشاغر أمامه، يتمنى ألا يقعد فيه أحد، يحس بارتباك شـــديد إذا رآه أحد وهو يتناول الطعام.

بالملقط الصـغير الخاص حمل من الصحن الصغير بضع قطع صغيرة من الثلج، وضعها في كأس الحليب، غير المحلَّى رفع الكأس إلى فمه، أحس باقتراب شخص منه، نفحه عطر البوازون، وصوت أنثوي ناعم يسأل:

ـ هل تسمح لي بمشاركتك المائدة؟

رفع وجهه إليها، أعاد الكأس إلى المائدة. هي نفســـها، ســـيدة الليلة الماضية. أمس ليلا كانت إلى المائدة أمامه مع رجل مقابل مائدته، كان وجهها إليه، التقت أنظارهما مرتين، رأى طيف ابتســامة، وهي تغادر حيَّتْه بإشارة خفيفة من أصـابعها. ليلة أمس كان شعرها الأسود الناعم القصـير مرســلا، هو اليوم أجعد، نديان، وليلة أمس كانت في قميص زهري. اليوم هي في قميص خمري ضيق مفتوح عن صدر ممتلئ.

أجابها وهو يبتسم:

ـ تفضلي، بكل سرور.

وضـعت صـحنها على المائدة، واتخذت موضـعها، قبالته. سـيدة في الخامسة والثلاثين، موفورة الصحة، أقرب إلى البدانة. حاول ألاّ ينظر إليها. رآها مرتين في البهو، غمره عطرها، تنزل في الطابق الخامس الذي ينزل فيه، لعل غرفتها قريبة من غرفته، ولمحها مرة في مدخل الفندق، ومرة أخرى في سوبر ماركت صغير بجوار الفندق حيث كان يشتري زجاجة عطر. تذكَّر الآن.

ـــ اعذرني، لم أجد مائدة شاغرة، وأنا مستعجلة، طائرتي ستقلع عند الرابعة، وعليَّ النزول إلى السوق لشراء هدايا.

نظر في ساعة يده، وابتسم، الساعة الآن التاسعة والنصف، ثمة متسع من الوقت. أكد قائلاً:

ـــ أهلاً بك، لا تشعري بالحرج، أنا مثلك بحثت عن مائدة فردية، فلم أجد.

ـــ طبعاً في مثل هذه الفنادق لن تجد مائدة فردية ولا أي سرير فردي، لا بد من مائدة لاثنين وسرير لاثنين.

وتمد يدها إليه:

- كوثر، صحفية من تونس العاصمة.

يأخذ أطراف أناملها، يصافحها برفق:

- بشير، كاتب، من حلب، سورية.
- أحب حلب، زرتها مرة واحدة، في رحلة جامعية، لا أنسى الجامع الأموي، والقلعة، وحديقة جميلة جدا، لا تقل لي اسمها، أنا سوف أتذكر، تذكرت: حديقة السبيل، كان هذا قبل عشرين سنة.
- ذاكرتك ممتازة، بيتي في ظل مئذنة الجامع الأموي.
- حلب لا تنسى.

تسأل بلهفة:

- شاعر؟
- لا، قاص.
- رأيتك ليلة أمس مع مجموعة من الأدباء الجزائريين، كنت سأنهض لأنضم إليكم، لكن كان بين المجموعة شخص أحبه جداً، وشخص لا أحبه أبداً.

تصب الحليب في الكأس إلى نصفه، ثم تملأ الكأس إلى الحافة بالقهوة، وهي تتكلم:

- الذي لا أحبه، ولن أذكر لك اسمه، بصراحة هو طليقي، انفصلنا منذ ستة أشهر، أنا أمي جزائرية، وهو ابن خالتي.

وترفع قطعة الكرواسان إلى فمها، تقضم لقمة، وتتابع الكلام:

- والرجل الذي كان معي على المائدة هو المحامي، جئت لقضايا تتعلق بالميراث، توفيت أمي، وأنا وحيدتها، أخوالي وخالاتي والأبناء سيشاركونني في الميراث.
- البقية في حياتك.
- تعيش، توفيت أمي منذ سنة، نسينا الحزن، بسبب الاختلاف على الميراث، وبصراحة هذا الاختلاف هو سبب الانفصال، انس الموضوع كله، متى انتهت سهرتكم؟ أنا ذهبت في زيارة إلى والدة المحامي، أمه صديقة أمي، رجعت بعد أقل من ساعة، ما وجدتكم.
- دعاني بوجاد إلى بيته دعوة خاصة، سهرنا في بيته.

تشهق قائلة:

- بوجاد؟ يا إلهي، ليتني كنت معكم، هذا هو الرجل الذي أحبه.
- أوه، صـدقت، رجل رائع جداً، طوال إقامتي ما تركني لحظة، يريد أن يطوف بي كل أرجاء العاصمة.

تقاطعه:

- هل زرتم نصب الشهيد؟
- لا.

وينظر في ساعة يده، وهو يقول:

- سيأتي في الحادية عشرة والنصف.
- اتصل به، اعتذر إليه، أنا سآخذك في جولة.

ترفع فنجان القهوة بالحليب إلى فمها، تأخذ رشفة، تعلق:

- أوه، حارٌّ جدًّا، حرقت لساني.

صحنها ممتلئ بقطعة كرواسان، ودلَّة قهوة، ودلَّة حليب، وشرائح خبز محمص، وشـرائح جبن أصـفر، وشـرائح رقيقة من لحم بارد، وعلبة بلاستيك صغيرة تشف عن عسل أسود، وبيضة مسلوقة، وحبة فراولة واحدة. صحنه فيه كأس حليب، وبضع دوقلات، وتفاحة صفراء.

يشير إلى الصحن الكريستالي الشفاف المملوء بقطع الثلج، يسألها:

- أضع لك في كأسك قطعة ثلج؟

تنظر إلى كأســه، رقيق شــفاف، تطفو على ســطح الحليب قطع ثلج صغيرة. تعلق مازحة:

- حليب مثلج في الصــباح، رائع، لا بأس، ضــع في كأســي قطعة ثلج أرجوك، لعل كأسي تبرد قليلا.

بالملقط الصغير يحمل قطعة ثلج، ويضعها في كأسها، تعلق:

- كنت أتوقع أن تضع لي قطع الثلج من كأسك، لا من الصحن.

يحمل بالملعقة قطرات من الحليب، وهو يسأل:

- هل تسمحين بوضع قطرات من حليب كأسي في كأسك.

ترد وهي تضحك:

- يســرني ذلك، هذا ما كنت أتمناه، ليتك تصــب كل الحليب الذي في كأسك.
- لا، لا، كل الحليب لا، وأرجو أن تعلمي أني لم أرشـف من الكأس بعد أي رشفة.

- ليتك فعلت.

ويرفع الكاس إلى فمه، يرشف منه بهدوء رشفة واحدة، يحس بنظراتها تقع على الكأس.

- أحب شرب الحليب مبردا بالثلج وغير محلى بالسكر.
- عرفت، لك ذوق خاص، متميز، مختلف.

تفتح بأناملها المطلية بالأحمر القاني علبة البلاستيك الصغيرة، وبالسكين تدهن شريحة الخبز المحمص بالعسل. يتناول دُقْلَة واحدة، ينزع نواتها بأصابعه، يشطرها شطرين، يتناولها بهدوء. تشرع في تناول شرائح الجبن، وتشرب معها القهوة بالحليب، يتناول الدُّقلات على مهل، تتابع تناول شرائح اللحم، يمسك التفاحة بالإبهام والسبابة، من خاصرتيها، يرفعها إلى فمه، يتكلم:

- اعذريني، هذه طريقتي في تناول التفاحة.
- عفوا، خذ راحتك، هذه حريتك الشخصية.
- لا يطاوعني قلبي على غرس الشوكة والسكين في قلبها، أحب الإمساك بها بإصبعين، أشم رائحتها، أحس بملمسها الناعم، أقضمها بأسناني.

تقاطعه معلقة:

- لك الحق كل الحق، للأسنان إحساسها الخاص، بها تبدأ المتعة، ويؤكد علماء النفس أن القبلة متطورة عن العضة.

يتابع:

- ثم أتذوق عصارتها وهي تذوب في الفم، ولا أعرف كيف أمضغها.

تصمت، تضع لقمة في فمها، ثم تتكلم:

- ذوقُك في الطعام مترف، وصحي، لست مثلك، لا أستطيع، لا بد من أن أتناول الكرواسان، والقهوة بالحليب، وشريحة خبز محص مع العسل، ولا بد من بيضة مسلوقة في الصباح، وأخيرا حبة فراولة، لا أستطيع مغالبة شهوتي للطعام.
- أنا أفضل القهوة بعد الإفطار.
- يعجبني ذوقك، لذلك تحافظ على رشاقتك، طول، ونحافة.

وتصمت ثم تضيف:

- حتى بدلتك بيضاء مثل الحليب، وهذا القميص البني القاتم بلون الدُّقلات يليق بك جدا، يناسب الصباح الرائق.

تصمت ثم تضيف:

- أنا أحب الألوان الفاتحة، لكن لا أعرف لماذا أنا أختار لنفسي الألوان القاتمة.
- حتى عطرك: البوازون.
- وأنت عطرك هو اللافند، أنت تضع العطر المنعش الذي يطرد الأمراض، ويُحيي الروح، وأنا أضع البوازون، السم القاتل.

تصمت، تتناول البيضة المسلوقة بلقمتين اثنتين، تتكلم:

- أظن أني رأيتك أمس مساء في السوبر ماركت.
- نعم، كنت أشتري زجاجة عطر.
- لافند؟
- لأ، شانيل.
- يا إلهي، كم كنت أحب الشانيل في أيام حياتي مع زوجي، ولكن بعد انفصالي عنه، عدت إلى البوازون، الذي كنت أضعه قبل الزواج. لمن اشتريت الشانيل؟

وضعت شريحة الخبز من يدها، وهمست:

- أه، اعذرني للسؤال، أنا آسفة، الفضول دفعني إلى السؤال، صدقني هو فضول عفوي، هذه هي الطبيعة البشرية، وربما بحكم عملي، في الصحافة.
- لا تشعري بالحرج، لو كنت في محلك لسألتك السؤال نفسه، هي هدية لزوجتي.
- تحبها؟
- أعشقها.
- أهنئها، أهنئها بك.

تمسح فمها بطرف المنديل، تنهض، وهي تتكلم:

- سأصعد إلى غرفتي لأحضر حافظة نقودي ثم نذهب معا إلى السوق القريب، استمتع بإفطارك.

تهم بالنهوض، ولكن تمد يدها إلى حبة الفراولة، وتقول:

- اشتهيت أن تقاسمني حبة الفراولة، هل تقبل مني نصفها؟ لا شك أنك ستقبلها، ولن أغرس في قلبها السكين، تعلمت منك، سأتناول أنا نصفها، وأضع بيدي نصفها الثاني في فمك.

وقبل أن يجيب بكلمة، تكون قد قضمت نصف الفراولة، ووضعت نصفها الثاني في فمه. يمد يده إلى الدُّقلة الوحيدة المتبقية، يقدمها إليها، وهو يقول:

- ويسرني أنا أن أقدم لك حبة الدُّقلة كلها كاملة.

تتناولها من يده، متعمدة لمس يده، تضعها في منديل ورقي، تلفها به، تودعها حقيبتها، وتعلق:

- يا إلهي، كم كان زوجي يحب أن يطعمني الدُّقلة بيده، بعد انفصالي عنه لم أذق الدقلة، شكرا لمبادرتك، سنتناولها معا في الجبل، عند نصب الشهيد، سآخذك أنا في جولة.

ونهضت، تاركة وراءها شذى عطرها، ورائحة جسمها. لكن، سمع صوتها، ورأى ظلها إلى جواره، وهي تدنو منه وتهمس، وقد مالت عليه فرأى جدول العطر بين النهدين، وهي تقول:

- كم رقم غرفتك؟
- ١١
- أحب هذا الرقم، هل تعرف لماذا؟
- لا
- لأنه يعني زوجين اثنين، ولأن مجموعه يساوي اثنين.

وتضع يدها على كتفه وهي تقول:

- سآخذ حماما سريعاً ثم أوافيك أنا في غرفتك وننزل معا، ما رأيك؟

التفتَ إليها، أجابها بهدوء وهو يهمس:

- لن أصعد إلى غرفتي، سأنتظرك في حديقة الفندق الأمامية، قرب المدخل.

*

انتقل إلى الحديقة الأمامية للفندق، أشعل سيكاره الكوبي، وقد اختار منضدة قريبة من مدخل الفندق. بعد قليل أطلت عليه في بنطال أبيض ضيق مشدود على فخذيها، وقميص زهري اللون مفتوح عند الصدر، وعلى عينيها نظارة واقية من الشمس. غمرته روائح هي موسيقى من

ألحان الجسد والعطر الأنثوي والشامبو المتميز. لا ينسى استحمامه بالشامبو أول نزوله بالفندق، لا يدري بماذا هو معطر؟ وكأن فيه مواد تبعث الرغبة. رفع جواله، وبهدوء همس:

- سأتصل بالسائق ليوصلنا إلى حيث شئت.

أجابت، وهي تضع يدها على يده تريد منعه من الاتصال بالجوال:

- لا تتصل، أرجوك، أفضِّل السير على الأقدام والاستمتاع معك بالجولة في شمس الخريف، والشارع الذي سنسير فيه مغلق أمام السيارات.

أخذ رشفة من فنجان القهوة، بطريقة مغرية، أشعرها فيها أنه يقبل طرف الفنجان، ثم نهض:

- أنت مغرم بالقهوة؟
- جداً.
- ولماذا تحبها إلى هذه الدرجة؟
- لأن رائحتها عبقة ولونها أسمر.
- حرمتك منها.
- بل عوضتني بدلاً منها.

نفث دخان السيكار، ونهض، علقت:

- يا إلهي كم أحب رائحة السيكار.
- لكن السيدات عادة يفضلن السيكارة، ولا سيما السيكارة الرفيعة الناعمة الخفيفة.
- أنا على العكس، أحب السيكار لأنه طويل وغليظ، ولأن رائحته نفاذة وقوية.

يقدم لها السيكار، وهو يقول:

- تفضلي.
- الآن، لا، لكن حين نرجع إلى الفندق، أحب أن تقدم لي في غرفتي سيكارا جديدا، لأقضم رأسه، وأبله بلساني، ثم تشعله لي.

أطفأ السيكار، وضعه في أنبوبة فضية خاصة، ونهض. وسارا معاً.

*

تكلمت بلطف:

ـ هذا الشارع مغلق أمام السيارات، خاص بالمشاة، وهذا مبنى البريد.

- رائع، كأنه قصر من قصور الأندلس.
- نعم هو كذلك، وعلى جدرانه في الداخل مكتوب: لا غالب إلا الله.
- سمعت مثل هذه الجملة من السائق، وقد شعر بالضيق من الزحام فقال: الله غالب.
- نعم، نحن في تونس نُتَّهَم بالنزق والعصـــبية، لكن الناس هنا أكثر منا نزقا، انس هذا، استمتع معي بجمال الشارع.
- بالصبايا اللواتي فيه.
- ولماذا لا تقول لأنني معك فيه.
- لا أستطيع أن أغمض عيني، هن أمامي كثيرات.

تمسك يده، وتعلق:

- أغمض عينيك، حتى لا ترى سواي، وأنا سوف أسير بك.

ثم تتأبط ذراعه، وتُشـــعره أنها هي التي تســـير به. يحس بضـــاضـــة صدرها، ودفئه، ويهمس:

- طوال عمري ما قادتني امرأة.
- ليكن اليوم مرة واحدة في العمر، ولسويعات.

وأشارت إلى مجمع تجاري، ثم قالت:

- سندخل إلى المجمع التجاري.
- لا أحب المجمعات التجارية الكبيرة، أحس أني أضـــيع فيها، أحب السوبرماركات الصغيرة.
- لن تضيع وأنت معي، بل ستحس بوجودك.

تشد على ذراعه، تلتصق به أكثر، تسأل:

- هل رن جرس هاتفك في الغرفة ليلة أمس؟
- نعم.
- ولماذا لم ترد؟
- أعرف هذه المضايقات في مثل هذه الفنادق الفخمة.
- وهل تسمي اتصالي مضايقة؟
- أنت اتصلت؟
- نعم، هل كنت سترد لو أنك عرفت أني أنا المتصلة؟

- ربما.
- بل بالتأكيد، لا تكابر، على كل حال خسرت ليلة متميزة كنت ستمضيها معي.

يعلق:

- لا أحب التذكارات، ولا اللقاءات العابرة قبيل الفراق.

تميل عليه وتهمس:

- هذا من حقك، ولكن أختلف معك، اللقاءات العابرة هي الأجمل، هي واحات في صحراء العمر.
- جلوسك إلى مائدتي لم يكن مصادفة إذا.
- بلى، أحسست بخروجك من غرفتك، وقدرت أنك نازل إلى المطعم فقررت البحث عنك.

تقف قبالته، تدنو منه، تهمس:

- يمكنني تأجيل رحلتي إلى الأسبوع القادم، ونمضي معا أسبوعا كاملا، أنا مراسلة صحيفة الشروق في تونس، ومعدة برنامج صباح الخير، سأتصل بالمجلة وبالفضائية، أسجل معك عدة مقابلات، ونمضي معا أسبوعا، على نفقة المجلة، ما رأيك؟

*

في المجمع التجاري، تشتري ثلاثة قمصان لأولادها، وأحذية، تنتقل إلى قسم الألبسة النسائية، أمام باب المحل، يقف يقول لها:

- سأنتظرك هنا على هذا المقعد، ليس من المناسب أن أدخل معك.

تشد على يده، وهي تقول له:

- بل ستدخل معي، اعتبر نفسك زوجي، أو عشيقي، لا بد أن آخذ رأيك.

تشير إلى قميص أبيض، فيه دوائر سود صغيرة، وإلى آخر أبيض خالص البياض، تلتفت إليه تسأله:

- ما رأيك، أيهما أجمل؟

يعلق:

- كلاهما يليق بك.

تشد على يده، تلتصق به أكثر، وتقول له:

- أريد رأيك.
- الأبيض.

- لأ، الأبيض بالدوائر السود الصغيرة، هو الأجمل، هل تعرف لماذا؟
- لا
- الأبيض هو أنت، والدوائر السود هي أنا.

ويناولها البائع قميصا، وهو يضيف:

- هذا على مقاسك سيدتي.

ترده إليه بلطف، وهي تقول:

- بل أريده أصغر من مقاسي بنمرة واحدة.

البائع يعلق:

- ولكنه، ضيق عند الصدر.
- هكذا أريده، هو أحلى.

ومن جناح الألبسة الرجالية تشير إلى ربطة عنق، وتقول للبائع:

- تلك، البيضاء بدوائر سود.

ثم تلتفت إليه، وتهمس:

- هي لك، أنا اخترتها، ولن أشاورك.

يعلق هامسا:

- أشكرك، ولكن لا يمكن أن أضع مثل هذه الربطة وأنا في الستين.

تشد على يده وهي تقول:

- ستضعها فقط ليلة واحدة، هنا لأجلي، في الفندق، ثم تحملها ذكرى، ولك الحق بعد ذلك في أن تضعها، أو لا، ولكن أظنك ستضعها دائما، هي ذكرى من الجزائر، على الأقل.

*

الشارع يغص بالرائحين والغادين، شباب كثر يتناثرون على الأرصفة، المقاهي كثيرة، على الأرض بائع أمامه بسطة صغيرة، هي صندوق خشبي، فيها علب معدنية صغيرة، ودفاتر صغيرة جدا، تقف، تشتري علبة، ودفترا، بكل رشاقة، تفتح العلبة، وتقص وريقة رقيقة جدا من الدفتر، شفافة، وتلف بها كمية صغيرة جدا من التبغ، تلفها، فتصبح مثل حبة العدس، تمد يدها إليه وتقول:

- تفضل، ضعها تحت لسانك، تذوق طعم التبغ.
- لا، وأشكرك.

- ستذوقها حين نرجع إلى الفندق، من فمي.

تضعها في فمها، تحت لسانها، ويتابعان المضي.

أمام تمثال عبد القادر الجزائري يقفان، تتأبط ذراعه، وتلتصق به، وهي تعلق:

- كم نحب الشام نحن المغاربة؟ انظر إلى عبد القادر الجزائري: لولا ثيابه لقلت هو شامي.
- أراه يشهر سيفه وهو على ظهر جواده نحو فرنسا، كأن حرب التحرير ما انتهت.
- صدقت، ما نزال نعاني من مشكلة التعريب، بعض المسؤولين ما تزال قلوبهم معلقة بفرنسا، ويتطلعون إلى فرنسة الجزائر، أو على الأقل يرفضون التعريب.

وتضغط على ذراعه ثم تضيف:

- لكن نحن قلوبنا معلقة بالشام.

وتهبط في شارع فرعي، تشير إلى سيارة أجرة، وتقول للسائق:

- القصبة.

*

أزقة ضيقة متعرجة، صاعدة، تحيط بها بيوت متلاصقة، جدرانها متشققة، أكلتها الرطوبة، رائحة العفونة يخالطها دبق البحر تشكل مع عبق الماضي عطرا خاصا، تقول له:

- هنا عاشت جميلة بوحيرد، وهنا لقي الفرنسيون أشد أنواع المقاومة، وهنا الحمَّامات القديمة والمطاعم الشعبية الرخيصة.

ثم تشد على يده، تلتصق به، وتهمس:

- لن نتناول الغداء في سفير، سأدعوك إلى أكلة شهية جدا، أنا كلما جئت إلى الجزائر تناولت منها، سأحدثها عنك كي تشتهيها، هي كوارع البقرة ولسانها، مسلوقة، اللسان لحم أحمر، والكوارع دهن سميك، ولا بد من أن تغمس يدك في المرق وتتناول الخبز واللحم بأصابعك، لا بالملعقة، ستتذوق أول مرة طعم اللحم الدسم المتبل بالفلفل الحار والبهار.

يضحك، يتكلم بجد:

- أنا نباتي، لعلك لاحظت ذلك.

تلتصق به أكثر، وتعلق:

- سأفطمك عن الحليب والنبات، يجب أن تذوق اللحم.

*

في الســـاحة أعلى الجبل تفتح يديها للهواء وتركض تســـتقبل الهواء بصدرها، وشعرها يتطاير، وتصيح:

- عاشت الجزائر حرة، عاشت الجزائر عربية، الرحمة للشهداء.

وتشير إلى السعفات الثلاث المتطاولة إلى السماء، وتقول:

- هذه سعفات النخيل، ترتفع بعلو تسعين مترا، وتلتقي في الوسط، وتعود لترتفع إلى الأعلى، لتؤكد عروبة الجزائر، ووحدة المقاومة الجزائرية ضد المستعمر، تعال انظر، عند كل سعفة تمثال لمناضل جزائري، مناضـــل بالحربة والســـيف، ومناضـــل بالبارودة، ومناضـــل بالمدفع الرشاش، لتدل على مراحل تطور المقاومة.

ثم يدخلان معا إلى متحف البطولة، المبني تحت السعفات مباشرة.

تصميم مدهش، قاعة دائرية كبيرة، هي في الحقيقة شرفة، تطل على ساحة، مسقوفة مغلقة، في الوسط منها صخرة، مضرجة بالدم، وإلى جانبها مصحف شريف مفتوح على حامل خشبي فاخر، تهمس:

- هذه صخرة البطولة، تضرجت بدماء الشهداء، وعليها تحطمت أطماع المستعمرين، هذه الصخرة هي الجزائر الصامدة دائما، وهذا المصحف رمز الإسلام الذي تمسكت به الجزائر أمام محاولة الفرنسيين تضييع هويتها.

ويطوفان بالشـــرفة، يتأملان على جدارها الممتد على طول القاعة الدائرية صـــورا تؤرخ للجزائر، منذ دخول الفرنســـيين محتلين، إلى خروجهم منها.

*

خارج المتحف تقول:

- لا شك أنك شعرت بالضيق في داخل المتحف وأحسست بالاختناق، نعم، هذا هو حال الجزائر، في عهد الاحتلال وفي مرحلة المقاومة الصعبة، وفي مرحلة التحرير، لكن هنا الآن ستشعر بحقيقة الحرية، هيا اركض مثلي وافتح صدرك للهواء، وتذوق طعم الحرية.

وتمسك بيده، وتركض، وهو يركض إلى جوارها، وتهتف:

- نعم للحرية في كل مكان في العالم.

*

تشد على ذراعه، وهي تقول له:

- والآن سنمضي إلى مكان مدهش، لن ترى مثله في العالم كله.

في ساحة واسعة كبيرة، قريبة من نصب الشهيد، يطلان على فوهة واسعة جدا، لحفرة عميقة، تتدرج هبوطا إلى الأسفل، على شكل مدرجات. وتلتصق به وتهمس:

- هنا أسواق ومحلات تجارية، تنزل إليها، مرحلة مرحلة، وهناك عدد من المقاهي ودار للسينما، ومطاعم، هذا مُجَمَّع رياض الفتح، سنتناول ما تشاء من المثلجات، بالحليب والكرز، الحليب لك، والكرز لي.

ويعلق:

- لا لن أنزل، اعذريني، هذا النوع من السوق يذكرني بحفرة الجحيم التي تخيلها دانتي مؤلفة من تسع طبقات، تضيق شيئا فشيئا، لا اعذريني.
- سأجعلك تحس أنه الفردوس، سوف ندخل إلى السينما، ونستمتع معا بالفيلم، هنا المقاعد مختلفة، هي موائد، كل مائدة لاثنين فقط، يقدم لك فيها ما تشتهي من الطعام والشراب، ويمكن فيها أن تشعل لي السيكار.

*

ويرن هاتفه الجوال، ينظر في ساعة يده، ويهتف:

- يا إلهي الساعة الآن الحادية عشرة والنصف، هذا بوجاد.

تحاول التقاط الهاتف منه، وهي تقول:

- قل له أنا مع كوثر.

ويرد على الهاتف:

- حقيبتي جاهزة في الاستقبال، أنا هنا عند مجمع رياض الفتح، أنتظرك، لن أتحرك من مكاني.

ويلتفت إليها:

- سامحيني، طائرتي ستقلع عند في الواحدة، نحتاج إلى نصف ساعة حتى نصل إلى المطار.

تطرق، تصمت، صدرها يعلو ويهبط، تقف قبالته، تنظر في عينه، تعلق:

- كنت أتمنى أن تسافر معي إلى تونس، سنذهب معا في رحلة إلى جزيرة جربة، لتعيش الحرية من نوع مختلف.

يعلق بهدوء:

- أشكرك، أنا في كل يوم جمعة أصلي في الجامع الأموي، بيتي في حلب في ظل مئذنته، كما قلت لك، وأتناول غالبا الكباب الحلبي المشوي مع زوجتي والأولاد، ثم آخذهم سيرا على الأقدام إلى القلعة، وهي جدا قريبة من الجامع الأموي.
- نعم، أتذكر مشينا من الجامع إلى القلعة على الأقدام، ومررنا بأسواق مكتظة بالبضائع وبالناس.
- وهناك، في القلعة، وهي بعلو نصب الشهيد، وهناك كما هنا نتنسم هواء الحرية مع الزوجة والأولاد.
- هذه قناعتك، أنا أختلف معك، ربما لأني لم أعش هذه الحرية مع زوجي، اعذرني.

تمد إليه الصندوق الذي لم يغادر يدها، وهي تقول:

- كنت أحلم أن أعقد ربطة عنقك في غرفتي بالفندق، وأن تشعل لي السيكار، بعد أن أقضم رأسه، وأبله بلساني، وأن تتعامل أنت مع هذا القميص الذي اشتريته خاصة لأجلك، لتحتفظ بذكرى مختلفة. على كل حال، أرجوك: اقبلهما، قدم القميص هدية لزوجتك، قل لها: هو وربطة العنق هدية من...

تغص، تتكلم:

- من الجزائر.

وتمد يدها إلى حقيبتها، تستل المنديل وقد لفت به حبة الدقلة، وهي تقول:

- سنقتسم الآن حبة الدُّقلة.
- لا، اتركيها، تناوليها في تونس.
- لن أتناولها أبدا، تعلمت منك، سأحتفظ بها ما حييت، هي أيضا ذكرى من الجزائر.

المحتوى

ألمٌ لا ينتهي
جلال وحبات الكرز الكبيرة
خارج حديقة الألعاب
نساء الحافلة
السكين على جانبي
زغرودة طويلة
الصمت
اتركوني، سأعيش كما أريد
نظرات متبادلة
حتى في باريس
زيارة إلى المستشار
العصفورة وبائع الحظوظ
في حديقة السبيل
حبة دقلة واحدة
المحتوى